# سُنَن قيام الأُمم

**فتحي حسن ملكاوي***

**الملخص**

مفاهيم: السُّنَّة، والقيمة، والأُمَّة، مفاهيم مركزية في معجم الألفاظ القرآنية. ويعد استحضار هذه المفاهيم حاجة مطلوبة في كل وقت. لكن حالة الأُمَّة الإسلامية في العالَـم المعاصر، تستدعي مزيداً من الاهتمام بها وإيلائها الأولوية. وتتأكّد الحاجة إلى هذا الاهتمام عندما نُدرِك موقع الثقافة السُّنَنية والتفكير السُّنَني، والاعتبار بالسُّنَن في حياة الأُمم كما يعرضها القرآن الكريم؛ فقيام الأُمَّة وبقاؤها يعتمد على عدد من الـمُقوِّمات، تقوم الأُمَّة بوجودها، وتضعف أو تنهار بغيابها، وهذه سُنَّة الله.

ويتضمَّن هذا البحث أربعة مباحث، تبدأ بالحديث عن السُّنَّة، ثمَّ عن الأُمَّة، ثمَّ ينطلق الحديث عن سُنَن قيام الأُمم عن طريق الربط بين السُّنَن والقِيَم والـمُقوِّمات، وتأكيد موقع منظومة القِيَم العُليا في كيان الأُمَّة. ثم يأتي البحث على علاقة سُنَّة التغيير بمنظومة القِيَم، وصلتها بعدد من القِيَم التي لا تقوم الأُمَّة دون وجودها.

**كلمات مفتاحية**: السّنة، القيمة، الأمّة، ثقافة سننية، تفكير سنني، علم السّنن. القيم العليا.

* دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم، تربوي وأستاذ جامعي أردني، مستشار في المعهد العالمي للفكر الإسلامي. البريد الإلكتروني: fathihmalkawi@gmail.com

تم تسلُّم البحث بتاريخ 29/ 8/ 2020م، وقُبِل للنشر بتاريخ 1/ 9/ 2021م.

ملكاوي، فتحي حسن (2023). **سُنَن قيام الأُمم**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 29، العدد 105، 55-128. DOI: 10.35632/citj.v29i105.7721

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2023 ©

## مقدمة

في هذا البحث حديثٌ موجزٌ عن ثلاثة مفاهيم مفتاحية، هي: السُّنَّة، والقيمة، والأُمَّة، وهذه المفاهيم مركزية في معجم الألفاظ القرآنية. لذا، فإنَّ استحضار هذه المفاهيم حاجة مطلوبة في كل وقت، ولكنَّ ذلك يكون في بعض الحالات حاجة مُلِحَّة تستدعي أولوية خاصّة من الاهتمام والبحث والمعالجة. وحالة الأُمَّة الإسلامية في العالَـم المعاصر تستدعي هذا الاهتمام وهذه الأولوية.

وتتأكَّد هذه الحاجة عندما نُدرِك موقع الثقافة السُّنَنية والتفكير السُّنَني، والاعتبار بالسُّنَن في حياة الأُمم كما يعرضها القرآن الكريم؛ فقيام الأُمَّة وبقاؤها يعتمد على عدد من الـمُقوِّمات، تقوم الأُمَّة بوجودها، وتضعف أو تنهار بغيابها، وهذه سُنَّة الله. وبعض هذه الـمُقوِّمات تختصُّ بكيان الأُمَّة الداخلي، وبعضها الآخر يـختصُّ بالتدافع بين الأُمم، وموازين القوى الـمُؤثِّرة في علاقاتها. وإذا كانت الأمور تتميَّز بضدِّها، فإنَّ غياب التفكير السُّنَني يعني التفكير الفوضوي العبثي الذي لا يبني أُمَّةً، ولا يحفظ كياناً.

ولكنَّ مفهوم "السُّنَن" لا يقف عند المعنى الضيِّق الذي يحيل إلى ثقافة دينية تقليدية تحجُر دلالة النصوص في سياق تراثي وتاريخي، وإنَّـما تحيل الدلالة القرآنية للسُّنَن إلى ما جعله الله في العوالم الطبيعية والاجتماعية والنفسية من قوانين، يُلِحُّ القرآن الكريم على ضرورة الكشف عنها وفهمها وتوظيفها. وإنَّ ربط هذه القوانين بتشريعات يُعِين الإنسان على ضبط حركة حياته؛ لتَتَّسِق مع تلك السُّنَن والقوانين.

وموضوع القِيَم في حياة الأُمَّة تعبيرٌ واضحٌ عن مُقوِّمات بناء الأُمَّة، وهو حديث حاضر في كثير من البحوث والدراسات، وفي كثير من البرامج التعليمية الـمسطرة، والممارسات التعليمية والوعظية. لكنّ معظم هذا الحديث يتوزَّع على جانبين؛ إمّا صياغة الفرد على القِيَم النبيلة الفاضلة، مثل: الصدق، والأمانة، والوفاء ... وإمّا تجنُّب القيام بمخالفات الكذب، والخيانة،

والسرقة، مع العِلْم بأنَّ مفهوم "القِيَم" يَتَّسِع إلىٰ أبعد من ذلك بكثير، ليتصل بالوجود البشري الجمعي، الذي يتمثَّل في المجتمعات والأُمم والدول، وما يَلزمها من نُظُم وتشريعات، وما يكون فيها، وفيما بينها من علاقات.

ولذلك، فإنَّ بناء أُمَّة جديدة، أو تجديد بناء كيانها؛ لنقلها من حالة إلىٰ أُخرىٰ، يستدعي وجود نوعين من القِيَم، لا يُغْني أحدهما عن الآخر؛ الأوَّل: القِيَم الخاصّة بشخصية الإنسان الفرد في هذه الأُمَّة؛ إذ لا خلاف علىٰ أنَّ الأُمَّة بأفرادها، وأنَّ وحدة التغيير تبدأ بالفرد. والثاني: القِيَم اللازمة للانتقال بحالة الأُمَّة إلىٰ كيان تتماسك عناصره، وتأتلف مُكوِّناته؛ لينظر إليه العالَـم، فيجده رقماً صعباً، لا يقطع صُنّاع القرار في العالَـم برأيٍ دونَه؛ فهي أُمَّة واحدة لها حضورها السياسي، والاقتصادي، والإعلامي، والعلمي.

والتعزيز اللازم لكلا النوعين من القِيَم ليس مسألة فردية تتمُّ بالتأمُّل أو بالأماني، وإنَّـما هي مسألة اجتماعية تتولّاها مؤسسات المجتمع التي تُعْنىٰ بالفرد الإنساني منذ الطفولة الـمُبكِّرة، وبالتأثير الـمُتساوِق لسائر مؤسسات التنشئة الاجتماعية والتنمية الفكرية؛ حتىٰ ينشأ الفرد، وتتكوَّن الجماعة، ويُبنىٰ المجتمع في بيئة ثقافية مشتركة، تكون فيها تجلِّيات القِيَم الاجتماعية والحضارية نتيجة تلقائية.

ومن الـمُلاحَظ أنَّ مفهوم "الأُمَّة" عانىٰ كثيراً من القصور في استعماله، ويكاد يغيب عن التداول عندما نتحدَّث عن الأُمَّة الإسلامية في هذه الأيام، بتأثير الشكِّ في الاحتفاظ بالـمُقوِّمات والقِيَم التي قامت هذه الأُمَّة علىٰ أساسها، والشكِّ في إمكانية استعادتـها في ضوء الوقائع القائمة في العالَـم المعاصر. ومن هنا تأتي أهمية استدعاء هذا المفهوم، وتأكيد موقعه في الخطاب الإسلامي المعاصر، والتفكير في سُنَن قيام الأُمم بصفة عامّة، وسُنَن قيام الأُمَّة الـمُسلِمة علىٰ وجه الخصوص.

ويتضمَّن هذا البحث أربعة مباحث، تبدأ بالحديث عن السُّنَّة، ثمَّ عن الأُمَّة، ثمَّ ينطلق الحديث عن سُنَن قيام الأُمم عن طريق الربط بين السُّنَن والقِيَم والـمُقوِّمات، وتأكيد موقع منظومة القِيَم

العُليا في كيان الأُمَّة. وأخيراً سنضرب مثلاً على علاقة بعض السُّنَن بمنظومة القِيَم، وهي سُنَّة التغيير وصلتها بعدد من القِيَم التي لا تقوم الأُمَّة دون وجودها.

## أوَّلاً: في معنى السُنَّة

جاء لفظ "سُنَّة" ولفظ "سُنَن" في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية. وقد تحدَّث السياق في آيتين منها عن سُنَّة الله تعالى في التعامل مع الرُّسُل، وحفظه لهم، ونصره إيّاهم. أمّا في الآيات التسع الأُخرى فقد كان السياق حديثاً عن سُنَّة الله في الـماضين من الأُمم. قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:13]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137]، وقال عَزَّ من قائل: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26]، وقال تبارك وتعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: 38]، وذلك من قبيل تلقّي الأُمم لهدى الله سبحانه، ونتائج أفعالها بإزاء هذا الهدى في الحياة الدنيا أو في الآخرة.

ولم يأتِ ذكر السُّنَن -بلفظها- في مجال مخلوقات الله تعالى في آفاق العالَـم الطبيعي، مثل: حركة الشمس والقمر، ومظاهر الأشياء وتغيُّرها في الفصول، وحركة الرياح، وتكوُّن السحب، ونـزول الـمطر، والبراكين والفيضانات؛ ممّا اعتاد الكُتّاب الـمُحْدثون أنْ يتحدَّثوا عنها بعبارة: "سُنَن الله أو قوانينه أو نواميسه في مخلوقاته في هذا العالَـم".

أمّا في الحديث النبوي فقد جاء لفظ "السُّنَّة" بمعانٍ كثيرة، منها الـمعاني التي وردت في القرآن الكريم؛ أيْ طريقة الله وعادته سبحانه، ومنها السُّنَّة النبوية التي هي الـمصدر الثاني في التشريع،[1] ومنها السُّنَّة التي هي مُقابِل الفريضة الواجبة، وهي عند الـمُحدِّثين ما ورد عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ؛ مـمّا يُثاب فاعله، ولا يأثم تاركه.[2] ومنها عادة الأُمم أو الأجيال السابقة في عمل

[1] مثال ذلك حديث: "تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّه" (مالك ابن أنس، 1412هـ، ح1874).

[2] مثال ذلك حديث: الرمل بالبيت وأنّها سُنَّة، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: "إِنَّ قَوْمَكَ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَمَلَ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالـمَرْوَةِ، وَهِيَ سُنَّةٌ"، قَالَ: صَدَقُوا وَكَذَبُوا" (مسلم، 1998، كتاب: الحج، باب: استحباب الرمل في الطواف والعمرة، ص500).

مُعيَّن،[3] ومنها القانون والعُرْف الدوليان في عدم قتل الرسول الذي تَبعث به أُمَّة إلى أُخرى بخصوص شأنٍ مشترك بينهما.[4]

وقد دار معظم الـمُفسِّرين في القديم والحديث على الدلالات التي حملتها هذه السياقات القرآنية؛ بمعنى عادة الله وطريقته سبحانه في التعامل مع البشر ومع الأنبياء. ولكنَّ بعض الـمُفسِّرين أخذوا يستعملون ألفاظاً ومصطلحاتٍ لمعنى "السُّنَّة" استدعتها مستجدات الاستعمال اللغوي، قد يكون أقربها إلى معنى "السُّنَّة" مصطلح "القانون". وبينما لا نجد هذا الـمصطلح في كثير من التفاسير القديمة، مثل: "تفسير الطبري"، و"القرطبي"، و"ابن كثير"، فإنَّنا نجده في حالات قليلة عند ابن عطية في "الـمُحرَّر الوجيز"، وعند الزمخشري في "الكشّاف"، وعند أبي حيّان في "البحر الـمحيط"، ثمَّ في حالات أكثر عند فخر الدين الرازي في "مفاتيح الغيب"، ثمَّ نجده مُستعمَلاً على نطاق أوسع في التفاسير التي هي أحدث، كما هو عند ابن عاشور في "التحرير والتنوير". وسنعرض موجزاً لطرق استعمال لفظ "القانون" عند الرازي وابن عاشور من الـمُفسِّرين؛ لتكوين فكرة عن السياقات التي يستخدم فيها كلٌّ منهما مصطلح "القانون".

فقد استعمل الرازي مصطلح "القانون" في عدد من الـمعاني، منها القواعد اللغوية مثل قانون الاستعارة (الرازي، 1420هـ، ج15، ص374)، وفي معنى القوانين العقلية الحكمية الدالَّة على جواز الكرامات (الرازي، 1420هـ، ج21، ص436)، وطريقة القرآن الكريم في توالي الـمعاني في الآيات القرآنية (الرازي، 1420هـ، ج13، ص10)، وفي القاعدة التي تُحدِّد الراجح من الـمرجوح في معاني الآيات القرآنية (الرازي، 1420هـ، ج7، ص139)، وفي معنى القوانين الطبية، والقوانين الفلكية (الرازي، 1420هـ، ج18، ص436).

---

[3] مثال ذلك حديث الأضاحي، وأنَّها سُنَّة أبيكم إبراهيم، كما جاء في "السُّنَن الكبرى" للبيهقي، عن زيد بن أرقم، أنَّهم قالوا لرسول الله ﷺ: ما هذه الأضاحي؟ قال: "سُنَّة أبيكم إبراهيم ﷺ"، قالوا: ما لنا فيها من الأجر؟ قال: "بكل قطرة حسنة" (البيهقي، 1994، ج9، ص261).

[4] مثال ذلك حديث: قالَ عبد الله، حيثُ قُتِلَ ابنُ النَّوَّاحةِ: إنَّ هذا وابنَ أُثالٍ، كانا أَتَيا النَّبيَّ ﷺ، رسولَيْن لمُسَيلِمةَ الكذَّابِ، فقالَ لهُما رسولُ الله ﷺ: "أتَشهَدانِ أنِّي رسولُ الله؟"، قالا: نشهَدُ أنَّ مُسَيلِمةَ رسولُ الله، فقال: "لو كنتُ قاتلاً رسولاً، لضرَبتُ أعْناقَكما"، قال: فجَرَتْ سُنَّةً ألَّا يُقتَلَ الرَّسولُ" (ابن حنبل، 2001، ج6، ص240).

أمّا محمد الطاهر بن عاشور فقد استعمل مصطلح "القانون" في عدد من الـمناسبات والمعاني، منها القواعد اللغوية في نظام العربية، ومنها الـمنهج الـمُعتمَد في التفسير، ومنها قوانين الـمشاعر النفسية والعلاقات الاجتماعية، ومنها قانون الله في الهدىٰ والضلال، والقوانين الـمنطقية الـمُعتمَدة لدىٰ الحكماء والفلاسفة، والقوانين العقلية في الجدل والمناظرة، وقانون جزاء الله الناس علىٰ اتّباعهم شريعته، وقوانين الحُكْم في السياسة والاقتصاد، وإقامة نظام العدل.

ومع ذلك، فقد استُعمل مصطلح "القانون" بمعنىٰ "السُّنَّة" في بيان سُنَّة الله في خَلْق الـمخلوقات، ودفْع الناس بعضهم ببعض؛ "ذلك أنَّ الله تعالىٰ لمّا خَلَق الـموجودات التي علىٰ الأرض من أجناس وأنواع وأصناف، خَلَقها قابلة للاضمحلال، وأودع فيها سُنَناً دلَّت علىٰ أنَّ مراد الله بقاؤها إلىٰ أَمَدٍ أراده، ولذلك نجد قانون الخَلَفيَّة مُنبَثّاً في جميع أنواع الـموجودات، فما من نوع إلّا وفي أفراده قوَّة إيجاد أمثالها؛ لتكون تلك الأمثال أخلافاً عن الأفراد عند اضمحلالها. وهذه القوَّة هي الـمُعبَّر عنها بالتناسل في الحيوان، والبذر في النبات ..." (ابن عاشور، 1984م، ج18، ص35). وفي معنىٰ سُنَّة الله سبحانه في خَلْقه الأشياء، وحكمته في مناسبة ظروفها، سمّىٰ ابن عاشور ذلك قانوناً؛ "لأنَّ بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الـموجودات من بعضٍ آخرَ؛ لمناسبةٍ بين طبيعة الـمكان وطبيعة الشيء الـموجود فيه من حرارة أو برودة أو اعتدال، ... فالله تعالىٰ يوجِد الـموجودات في الأحوال الـمناسبة لها، فالحيوان والنبات كله جارٍ علىٰ هذا القانون" (ابن عاشور، 1984، ج2، ص501).

إنَّ كل ما ورد أعلاه في معاني السُّنَّة في القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب التفسير لا يزال يُستعمَل في الكتابات الحديثة، ولكنَّ موضوع السُّنَن أصبح عِلْماً واسع الأرجاء.

وللإمام محمد عبده نصٌّ صريحٌ في تسمية السُّنَن بالقوانين والشرائع والنواميس؛ فآيات القرآن الكريم صريحة في: "أنَّ لله في الأُمم والأكوان سُنَناً لا تتبدَّل، والسُّنَن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلىٰ حسبها تكون الآثار، وهي التي تُسمّىٰ شرائع أو نواميس، ويُعبَّر عنها بالقوانين" (عبده، 2011، ص83-84).

وقد جمع عبد الكريم زيدان في كتابه عن "السُّنَن الإلهية" ما يختصُّ من السُّنَن بالأفراد والجماعات والأُمم، وعبَّر عن سُنَّة الله بأنَّـها قانون إلهي عام، فقال: "وحيث إنَّ سُنَّة الله تعالى الـمُتعلِّقة بأفعال البشر وسلوكهم هي طريقته الـمُتَّبَعة في معاملته للبشر...، وما يترتَّب على ذلك من نتائج مُعيَّنة في الدنيا والآخرة. فهذا يعني أنَّ معنى "السُّنَّة" هو معنى "القانون العام" من حيث خضوع أفعال البشر وسلوكهم لأحكام هذه السُّنَّة التي يُمكِن تسميتها بالقانون العام" (زيدان، 1993، ص13-14). "وهذا الخضوع من الأفراد والأُمم في جميع أحوالهم لهذا القانون الرهيب يساوي بالضبط خضوع الأحداث الكونية المادِّية لهذا القانون؛ فكما أنَّ سقوط تفّاحة من شجرة هو نتيجة حتمية لأسباب مُعيَّنة أدَّت إلى هذا السقوط، فكذلك يُعتبر سقوط دولة أو هلاك أُمَّة نتيجة حتمية لأسباب مُعيَّنة أدَّت إلى هذا السقوط" (زيدان، 1993، ص23-24).

ويُمكِن التمييز بين سلوك الإنسان وسلوك الأشياء في العالَـم الطبيعي؛ ذلك أنَّ "سُنَن الله التي فطر الخليقة عليها، التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، تجعلها تسير على النهج الذي تسير عليه، ولا تستطيع الطبيعة أنْ تنتهك القانون الطبيعي ... أمّا الإنسان الذي تحلّى بالشجاعة وقَبِلَ حمل الأمانة، فهو قادر على طاعة الأمر الإلهي التكليفي، وعلى عصيانه" (الفاروقي، 2016، ص70-71) ولذلك، فإنَّ السُّنَن التي تختصُّ بفعل الإنسان والاجتماع البشري، منها ما يكون في الطاعة ولها سُنَنها، ومنها ما يكون في المعصية ولها سُنَنها.

ونحن لا نجد مشكلة في استخدام الألفاظ والمصطلحات في مجالات العلوم والمعارف، مثل استخدام لفظ "القانون" دلالةً على السُّنَّة، بما يُعِين على تقريب فهم الأفكار والمعاني إلى الناس، وتسهيل فهمها، إذا أسهم ذلك في خدمة الـمقاصد القرآنية في مجالاتها العامة والخاصة. وقد عبَّر ابن عاشور عن قبول هذا الاستعمال بقوله: "فلا يُلام الـمُفسِّر إذا أتى بشيء من تفاريع العلوم ممّا له خدمة للمقاصد القرآنية، وله مزيد تعلُّق بالأمور الإسلامية" (ابن عاشور، 1984، ج1، ص42- 43).

وموقع عِلْم السُّنَن يتصل اتصالاً مباشراً بالعقيدة الإسلامية أو ما يُسمّى الفِقْه الأكبر. ومن ثَمَّ، فهو يحكم حياة الإنسان في مجالاتها كلّها، وهو بذلك أقرب ما يكون إلى عِلْم العمران البشري أو عِلْم

الاجتماع، وعِلْم الأنثروبولوجيا الذي هو من العلوم التي انشغل بها كثير من الـمُفكِّرين من مختلف الأُمم علىٰ مدار التاريخ، وحاولوا فيها الكشف عن القوانين والسُّنَن التي تحكم التغيُّرات التي تحصل في حياة الأُمم والشعوب، والعوامل والأسباب الكامنة خلف هذه التغيُّرات (لوبون، 2014م، ص11).[5]

إنَّ قيمة عِلْم السُّنَن هي في استشراف الـمستقبل، والسعي نحو تحقيق الأهداف الـمنشودة بوعي وثقة وبصيرة وتخطيط. والـمُهِمُّ في العِلْم بالسُّنَن الإلهية هو ما يتعلَّمه الإنسان من مُتطلَّبات تحقيق تلك الأهداف، وتسخير هذه الـمعرفة في الوصول إليها بأسبابها ووسائلها.

ويتضمَّن عِلْم السُّنَن دراسة مفهوم "السُّنَّة"، وأهميتها، وأصنافها، وبناء وعي سُنَني أو ثقافة سُنَنية، تُمكِّن الإنسان من استحضار السُّنَّة كلَّما احتاج إلىٰ أنْ يفهم حدثاً أو ظاهرةً أو تغيُّراً، أو أنْ يقوم بعمل يحلُّ به مشكلةً أو يُحقِّق به هدفاً علىٰ الـمستوىٰ الفردي أو علىٰ مستوىٰ الـمجتمع والأُمَّة. ويرىٰ عبد الكريم زيدان أنَّ الآيات القرآنية الدالَّة علىٰ السُّنَن تفوق في عددها تلك الآيات الخاصّة بالأحكام، وفي ذلك إشارة إلىٰ أهمية الوعي بالسُّنَن من أجل التفكُّر والاتِّعاظ من جهة، ومن أجل فهم سُنَن الله تعالىٰ في الاجتماع البشري من جهة أخرىٰ. وتتوزَّع الآيات الدالَّة علىٰ السُّنَن في سياقات مُتنوِّعة، منها قصص الأنبياء مع أقوامهم، وأخبار الأُمم السابقة، والمواجهة الأزلية بين أهل الحقِّ وأهل الباطل، والتفكُّر في الآفاق والأنفس، ونتائج سعي البشر في الدنيا والآخرة (زيدان، 1993، ص19).

[5] من هؤلاء العلماء علىٰ سبيل الـمثال الـمُؤرِّخُ الفرنسي غوستاف لوبون، الذي ألَّف كتاباً في هذا المجال، واختار مُترجِم الكتاب لفظ "السُّنَن" ليكون في عنوان الكتاب، بوصفه أكثر تعبيراً عن موضوعه. والكتاب نُشِر أوَّل مَرَّة بالفرنسية عام 1894م، وتُرجِم إلىٰ العربية أوَّل مَرَّة عام 1913م، ثمَّ ترجمه عادل زعيتر مَرَّةً أُخرىٰ، ونُشِر عام 1950م. وموضوع الكتاب كما يقول الـمُؤلِّف في مقدمته: "غايته تعيين بعض السُّنَن النفسية لتطوُّر الأُمم ... وتدلُّ تلك السُّنَن علىٰ أنَّ عدداً قليلاً من العوامل النفسية الثابتة يُسيطِر علىٰ حياة الأُمم، فضلاً عن سيطرة بعض الـمُؤثِّرات التي هي وليدة تقدُّم الحضارة. ويُرىٰ من خلال الزمان والمكان تأثيرُ تلك السُّنَن في كل زمان ومكان، وكان لتلك السُّنَن الأثر البالغ في قيام أعظم الدول، وسقوط هذه الدول" (لوبون، 2014، ص11).

إنَّ استقصاء كتب التفسير والمعاجم في القديم والحديث، وغيرها من كتب الفِقْه والفكر والثقافة، يكشف عن تنوُّع واسع في معنى السُّنَّة، وما يُفهَم من سياقات ورودها في القرآن الكريم، فنجد من هذه المعاني: الطريقة، والعادة، والسيرة، والمناهج، والوقائع، والنواميس، والشرائع، والقوانين، والضوابط، والمعايير، والعهود، والأقدار، والبصائر.

وبالرغم من أنَّ السُّنَّة في معناها العام هي الطريقة الجارية التي تكون مألوفة ومعروفة؛ لاتِّصافها بالسلوك المضطرد المعتاد، فإنَّ هذا السلوك المضطرد الذي اعتاد صاحبه على فعله في حالات مختلفة، وبمرور الزمن، يصبح سيرة معروفة يُمكِن ملاحظتها، والاستفادة منها بالاقتداء والاتِّباع لِما فيها من خير ومصلحة، ويصبح عادة تُنبِئ بما سيأتي لاحقاً، ويصبح قانوناً يحكم السلوك، ويصبح منهجاً يتمثَّل بالتفكير السُّنَني. وبعض السُّنَن كانت شرائعَ وأحكاماً قرَّرها الله سبحانه لعباده، وهي من أقدار الله سبحانه، وهي بصائر للناس تُبصِّرهم وتهديهم إلى ما ينفعهم.

## 1. أهمية عِلْم السُّنَن في الفكر الإسلامي

السُّنَن الإلهية التي تحكم حياة البشر، والسُّنَن الكونية التي تحكم الكون المادي في آفاقه الواسعة والدقيقة، كلُّها تجري بانتظام عجيب، وتقدير دقيق، وكلها تشهد بوجود الخالق سبحانه ووحدانيته، وكلها تجري بعِلْمه سبحانه وإرادته وحكمته. ولهذا، فإنَّ لدراسة السُّنَن شأناً عظيماً بالإيمان والعقيدة بأركانها وخصائصها. وكلُّ اكتشاف جديد من انتظام سُنَن الله تعالى في الكون يُعمِّق الإيمان بقدرة الخالق العظيم، وبفضله على الناس حين يُعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون، عندما يسلكون أسباب النجاح في أيِّ اكتشاف.

إنَّ الوعي بالسُّنَن كما أراد الله سبحانه أنْ يُعلِّمها للإنسان هو الكفيل بانتظام حياة الإنسان، وتمكينه من القيام بحقِّ الخلافة والعمران، وإنَّ تدبُّر هذه السُّنَن بنوعيها: الكونية والاجتماعية هو ما يبني عند الإنسان رؤية للعالَم تَتَّصِف بالتكامل والشمول؛ التكامل بين موقع الفرد والجماعة والأُمَّة في بناء الاجتماع البشري، والتكامل بين الكسب في الدنيا والجزاء في الآخرة، وإنَّ الاعتبار بهذه السُّنَن هو ما يربط فهم الإنسان للماضي والحاضر والمستقبل.

ومن ثَـمَّ، فلا ينفع في دراسة السُّنَن -ضمن سياق النهوض الحضاري- محض الاطِّلاع السطحي العابر، ولا الدراسة الـمُتعمِّقة لجمع الـمعلومات، وتصنيفها، وتحليلها، ونشرها للترقّي في الـمكاسب الشخصية والرتب العلمية. صحيحٌ أنَّ هذه الدراسة لا بُدَّ أنْ تكون دراسة علمية هادفة، لا تكتفي بتطوير عِلْم جديد كما تطوَّرت سائر العلوم في الحياة الإسلامية، مع نـموِّ الـمعرفة، ونـموِّ الحاجة إليها، بل يجب تحويل الـمعرفة بهذا العِلْم إلى سعي عمليّ لإنجاز التغيير الـمطلوب في حياة الأُمَّة، واستئناف موقعها في الوسطية والخيرية، والإسهام في ترشيد الحضارة الإنسانية وتوجيهها.

إنَّ تأكيدنا أهمية دراسة السُّنَن في سياق النهوض الحضاري للأمَّة جاء من يقيننا بأنَّ هذا النهوض يحتاج إلى توافر ثلاثة أهداف مُتكامِلة، هي: اكتشاف السُّنَن، وفهمها، وتسخيرها. ومن الـمُلاحَظ أنَّ الحديث عن السُّنَن في القرآن الكريم جاء في سياقات مُتعدِّدة، يُعِين تدبُّرها على تحقيق هذه الأهداف الـمُتكامِلة؛ فمن هذه السياقات ما يُبيِّن للناس أنَّ هذه السُّنَن هي منهج القرآن "لإعمار الكون وتحقيق الاستخلاف الـمنشود، ... وهي الدليل على طريق الرشاد والهداية والفلاح في الدنيا والآخرة، وهي مصدر الـمعرفة والقوَّة والتمكُّن في الأرض، وهي دليل الانتظام والتناسق والإعجاز في الخَلْق والحركية الكونية والبشرية، ومنها أنَّـها مصدر للمعرفة بالآفاق والأنفس. ومن ثَمَّ، تحقيق الذات عن الـمعرفة والعِلْم السُّنَني الـموصِل إلى بناء الحضارة والعمران البشري الـمُتوازِن الذي أمر به الحقُّ تبارك وتعالى" (برغوث، 2007، ص13-48).

إنَّنا في سعينا لبناء عِلْم السُّنَن ونشر الثقافة السُّنَنية لا نبدأ من فراغ، ولكنَّنا نستند إلى مرجعية الوحي الإلهي الذي نشأت الأُمَّة الإسلامية على هدايته، وإلى تراث ضخم من فهم علماء الأُمَّة لهذه الـمرجعية عبر تاريخها، وكان واضحاً أنَّ نصوص الوحي وفهوم العلماء لها كانت تُلاحِظ سُنَن الله تعالى في مخلوقاته بنوعيها؛ سُنَن الله في الأشياء والأحداث والظواهر الكونية الطبيعية، وسُنَن الله في البشر وأفعالهم وأحوالهم. وكان بعض العلماء يُدرِكون الحاجة إلى "عِلْم السُّنَن"، وضرورة توظيفه في حياة الأفراد وواقع الأُمَّة، وإذا لم يتيسَّر الوصول إلى الدرجة العليا من الوعي والإدراك عند جميع

الأفراد، فلا مناص من توافره لدى القادة من أهل العِلْم والسلطان؛ ذلك أنَّ هذا الوعي والإدراك قد لا يتحقَّق إلّا عند القليل، يقول ابن خلدون: "ومن الغلط الـخَفِيِّ في التاريخ الذهولُ عن تبدُّل الأحوال في الأُمم والأجيال بتبدُّل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دَوِيٌّ شديد الخفاء؛ إذ لا يقع إلّا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطَّن له إلّا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أنَّ أحوال العالَـم والأُمم وعوائدهم ونِحَلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنَّـما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سُنَّة الله التي قد خلت في عباده" (ابن خلدون، 2004، ج1، ص321).

وقد أطال ابن القيِّم الحديث عن علاقة النتائج بالأسباب، كما يُوضِّحها القرآن الكريم، فقال: "وقد رتَّب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العِلَّة، والـمُسبِّب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع." ثم ذكر عدداً من الأمثلة التي يُرتِّب الله فيها الحُكْم الخَبري الكوني، والأمر الشرعي، على الوصف الـمناسب له، وبصيغة الشرط والجزاء، وبلام التعليل، وبأداة كي، وبباء السببية، وبالمفعول لأجله، وبلمّا، وبإنَّ، وبلَوْلا، وبلَوْ. ثمَّ قال: "وبالجُمْلة، فالقرآن من أوَّله إلى آخره صريحٌ في ترتيب الجزاء بالخير والشَّرِّ والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحها ومفاسدهما على الأسباب والأعمال، ومَنْ فَقِه هذه الـمسألة وتأمَّلها حقَّ التأمُّل انتفع بها غاية النفع" (ابن القيم، 1429هـ، ص31-35).

وإذا كان عِلْم السُّنَن أو فِقْه السُّنَن لم يتطوَّر بالقدر الكافي في ما سبق، فإنَّ الـمشكلة الكبرى هي في غياب الثقافة السُّنَنية، وضحالة الوعي بفِقْه السُّنَن، وضعف التفكير السُّنَني، ورُبَّما يعكس ذلك جانباً من مشكلات الأُمَّة الإسلامية، وعدم توظيف الـمُقوِّمات الأساسية للخروج من هذه الـمشكلات وَفق سُنَن الله الجارية في قيام الأُمم ونهوضها.

## 2. ماذا يعني اكتشاف السُّنَن؟

وعد الله سبحانه وتعالىٰ أبا البشر آدم عليه السلام ألّا يتركه دون هداية تَقيه من الضلال والشقاء. قال تعالىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: 123]. وقد تواصلت رسالات الهداية بعد آدم عليه السلام إلىٰ ذُرِّيَّته حتىٰ خُتِمت الرسالات بمحمد ﷺ. ففي القرآن -مثلاً- بيانٌ واضحٌ لبعض أشكال الهداية التي تتمثَّل في السُّنَن الإلهية، التي نطق بها القرآن صراحةً؛ ليتدبَّرها الإنسان، ويَتَّعِظ بها. وفي القرآن الكريم دعوةٌ مُلِحَّةٌ ومُتكرِّرة لاستخدام مَلَكات التعقُّل والتفكُّر والتدبُّر؛ لاكتشاف السُّنَن عن طريق السير والنظر في ملكوت الله والتفكُّر في مخلوقاته، من مثل قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]. وقد أكْثَرَ القرآنُ الكريمُ من لفت النظر إلىٰ آيات الله تعالىٰ في الآفاق والأنفس، وما تتضمَّنه هذه الآيات من سُنَن الكون المادي، والاجتماعي البشري، والبناء النفسي، من مثل قوله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]، وقوله ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النمل: 93]. وفي هاتين الآيتين وعدٌ من الله تعالىٰ بأنَّه سيُري الإنسان من آياته، والسين في "سنريهم" وفي "سيريكم" هي للمستقبل القريب، ورُبَّما يعني ذلك أنَّ الله تعالىٰ سيُمكِّن الإنسان أنْ يكتشف من سُنَن الله تعالىٰ وقوانينه في الخَلْق في كل وقت، كلَّما اتَّخذ الطرق والأساليب الملائمة لهذا الاكتشاف. ومن هنا، فإنَّ السعي للكشف عن السُّنَن بالسير والنظر والتعقُّل والتبصُّر لا يُعَدُّ ترفاً عقلياً وسلوكاً اختيارياً، وإنَّما هو واجب ديني وضرورة حياتية للإنسان المُسلِم. وحين يكتشف العلماء سُنَّة من سُنَن انتظام وجود الأشياء أو حدوث الظواهر واطِّرادها، فإنَّ في ذلك ميداناً للتسخير والتوظيف في ما يُحقِّق مصالح مُعيَّنة أو يدرأ مفاسد مُعيَّنة، ثمَّ إنَّه ميدان لمزيد من الاكتشاف.

ومن الأمثلة علىٰ ذلك أنَّ علماء الكيمياء اكتشفوا أنَّ العناصر الكيميائية المعروفة تخضع لنظام دقيق من دَوْرِيَّة التركيب والخصائص (periodicity)؛ ما سمح لهم بوضع هذه العناصر في جدول يحوي أعمدةً لعائلات مُتشابِهة في الخواصِّ، وصفوفاً أُفقيةً تتغيَّر خواصُّها بالتدريج. واكتشف العلماء أنَّ بعض

الـمواقع في الجدول يجب أنْ تكون فارغة، لعدم معرفتهم بعناصر ذوات تراكيب وخصائص تُحدِّدها تلك المواقع؛ ما دعا إلى توقُّع اكتشاف هذه العناصر. وقد اكتُشِفت بالفعل، وتبيَّن أنَّ كُلّاً منها تمتلك الخواصَّ التي يُحدِّدها موقعها في الجدول، وفي ذلك دليل على صحَّة التوقُّعات مع كل اكتشاف جديد. وقد أسهم الجدول الدوري في البحث عن سِرِّ الدورية في الخواصِّ الكيميائية والفيزيائية للعناصر، فاكتُشِف أنَّ التشابة والاختلاف في هذه الخواصِّ يكمن في البِنية الإلكترونية للعناصر، وهذه البِنية لم تكن قد اكتُشِفت من قبلُ، وأدّى اكتشاف هذه البِنية إلى اكتشاف مزيد من النظريات العلمية، مثل: ميكانيكا الكَمِّ، والنسبية، والنشاط الإشعاعي وغير ذلك (شيري، 2016، ص11).

ولا تزال الفكرة الأساسية لدورية الخواصِّ قائمة، ولا تزال تسمح باكتشافات أُخرى. ففي عام 2015م، وافق الاتِّحاد الدولي للكيمياء النظرية والتطبيقية على إقرار اكتشاف لثلاثة عناصر، أُضيفت إلى الجدول في أماكنها التي كانت مُخصَّصة لها قبل أنْ تُعرَف (شيري، 2016، ص37–39).[6]

ولكنَّ اكتشاف السُّنَن، وفهم موضوعها وخصائصها، ليس مسألة تَرَفٍ علمي، وتَرَقٍّ معرفي، وإنَّما يُمثِّل الخطوة الأساس للتمكُّن من تسخير السُّنَن في جلب الـمصالح ودرء الـمفاسد، وتوظيفها -في نهاية الـمطاف- في جهود بناء الأُمَّة ونهوضها الحضاري. وهذا يتطلَّب التعامل مع موضوع السُّنَن بوصفه حقلاً دراسياً يقع في الأهمية ضمن الـمقاصد الشرعية والفرائض الدينية. ومن ثَمَّ، تكون دراسته ضمن منظومة العِلْم والمعرفة في صورتها الـمُتكامِلة. فالنهوض الحضاري الذي نسعى إلى أنْ تُحقِّقه الأُمَّة يتطلَّب فهماً عميقاً لآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، ودرجةً عاليةً من الوعي بنُظُم الاجتماع البشري وقوانينه، وجهداً متواصلاً من التفاعل العمراني الاستخلافي.

وجهود اكتشاف السُّنَن لا بُدَّ أنْ تستند إلى ما بيَّنه الله سبحانه من هذه السُّنَن في نصوص صريحة، وإلى ما طلب اكتشافه من هذه السُّنَن بالسَّيْر والنظر والبحث الـمنهجي. ولا ننسى أنَّ جهود فهم السُّنَن وخصائصها وأصنافها تستند إلى مجموعة من الـمبادئ، مثل العلاقة بين الأسباب

[6] انظر قرار الاتحاد الدولي للكيمياء النظرية والتطبيقية في:

- http://www.bbc.co.uk/news/science-environment-35220823.

والنتائج، وأنَّ أقدار الله تعالىٰ في الناس إنَّما تتحقَّق بسعيهم، وأنَّ جهود تسخير السُّنَن تتحقَّق بالاعتبار والتدبُّر، ومزيد من العِلْم بخصائص الأشياء وقوانينها، وتوظيف ما هو كامن فيها من طاقات، وتوفير مُتطلَّبات التغيير من مُقوِّمات بناء الأُمم، وعوامل نهوضها الحضاري المنشود.

وقد توسَّع القرآن الكريم في بيان أساليب تعرُّف السُّنَن واكتشافها والاعتبار بها. وأهمُّ هذه الأساليب هو السَّيْر في الأرض، والنظر والاعتبار، والتفكُّر في نوعين من آيات الله سبحانه، هما: الآيات التي تتحدَّث عن قصص الأنبياء وتاريخ الأُمم الماضية وآثارها الباقية، وآيات الله في الآفاق والأنفس التي يُتوصَّل إليها بالسَّيْر والنظر والبحث والاكتشاف.

وجاء في "تفسير المنار" حديثٌ مُفصَّلٌ عمّا سمّاه المُؤلِّف "الأصول العلمية والعملية من دينية واجتماعية" لسورة الأنعام، وذكر واحداً وعشرين أصلاً، يَتَّصِل بعضها بموضوع السُّنَن، منها الأصل الرابع عشر الذي جاء في الحثِّ علىٰ دراسة عِلْم الاجتماع وسُنَن العمران عن طريق "النظر في أحوال الأُمم وعواقب الأقوام التي كذَّبت الرُّسُل، في أثناء السير في أرضها، ورؤية آثارها، وسماع أخبارها ... وهذا النظر والاعتبار لا خلاف بين العلماء في وجوبه شرعاً، وكونه مطلوباً لذاته، ومقصوداً من السياحة والسَّيْر في الأرض." وقد بيَّن المُؤلِّف أنَّ السير والسفر قد يكون مباحاً، أو مندوباً، أو فرضَ عينٍ، أو فرضَ كفايةٍ. وكذلك قد يكون مكروهاً أو مُحرَّماً. وكل ذلك بناءً علىٰ نِيَّة المسافر، ومقدار ما يتحقَّق له ولأُمَّته وبلاده من نفع أو ضرر. ثمَّ قال: "وأجمعُ الآيات لتكميل النفس بالسفر من طريق الدراية المستفادة بالنظر والاكتشاف والاعتبار، وطريق الرواية والتلقّي عن أهل العِلْم والبصيرة والاختبار، قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]" (عبده ورضا، 1947، ص289-290).

وقد أوضح الله سبحانه سُنَنه في كتابه المسطور في صورة أحكام وتوجيهات وتشريعات، تُعِين الإنسان علىٰ تحقيق هدف الاستخلاف والعمران، وفي صورة بيان لسلوك الإنسان (فرداً، وأُمماً، وأقواماً) ونتائج هذا السلوك، وكرَّر توجيه الإنسان إلىٰ السَّيْر في الأرض والاعتبار بهذه السُّنَن، ومن

ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: 42]. وفي القرآن الكريم كثيرٌ من قصص الـماضين التي تكشف عن سُنَن الله تعالىٰ في ربط النتائج بالأسباب في عالَـم البشر. فبعض هذه القصص فيها عِبْرة بنتائج الظلم والفساد، كما في قصص فرعون وعاد وثمود، وبعضٌ آخرُ فيه عِبْرة بنتائج الاستقامة علىٰ الهدي الإلهي، والاستجابة لأمر الله، والصبر علىٰ البلاء، كما في قِصَّة يوسف عليه السلام.

## 3. تصنيف السُّنَن

ثمَّة معايير مختلفة لتصنيف السُّنَن، ولكنَّنا في سياق هذا البحث سنكتفي بالإشارة إلىٰ نوعين أساسيين يُمكِن التمييز بينهما في نصوص القرآن الكريم. أمّا النوع الأوَّل فيختصُّ بالإنسان الفرد وبالتجمُّع الإنساني في الأقوام والشعوب والأُمم، وما للوجود البشري من اختيار في فعله وحساب عليه. وهو يشمل آيات الله في الأنفس، وسُنَن التعامل بين الأفراد والشعوب والأُمم، وسُنَن أمر الله في سلوك البشر ونتائج هذا السلوك في الدنيا مع ما ينتاب هذا السلوك من أحوال أو مراحل النشأة والصعود والهبوط، وَفق الأسباب والعوامل الفاعلة في ذلك. ويغلب علىٰ هذا النوع من السُّنَن اسم السُّنَن الاجتماعية. وهي تشمل السُّنَن النفسية، وسُنَن نُظُم الإدارة، والحُكْم، والسياسة، والاقتصاد، وعلاقات الأُمم.

وأمّا النوع الثاني فيختصُّ بخَلْق الله بصورة عامَّة، ممّا تخضع له الـمخلوقات من قوانين قهرية، كما في وجود الأشياء وتركيبها وحركتها في مستوياتها الكبيرة؛ من: مَجرّاتٍ، وشمسٍ، وقمرٍ، ورياحٍ، وسحابٍ، وأرضٍ، وسماءٍ، وأنهارٍ، وبحارٍ، وحيوانٍ، ونباتٍ، بما في ذلك تبدُّل الليل والنهار، وحركة أعضاء الكائنات الحيَّة ومصيرها بالموت أو في وجودها وحركتها في مستوياتها الدقيقة، التي تتناهىٰ في الصغر حتىٰ مستوىٰ الذَّرّات والخلايا، وما في تركيبها من أجزاء، وما ينتابها من حركات. وقد غلب علىٰ هذا النوع من السُّنَن اسم السُّنَن الكونية، وجرىٰ التركيز عليها في الثقافة الـمعاصرة؛ لصلتها الـمباشرة بعلوم الأشياء والأحياء، وسلوكها وَفق قوانين مُنضبِطة.

وهكذا أصبحت القوانين الطبيعية والاجتماعية تعبيراً عن معنىٰ السُّنَن الإلهية.

ورُبَّما نجد تناظراً بين تصنيف السُّنَن في هاتين الفئتين، مع ما يُمكِن تمييزه في القرآن الكريم من آيات الخَلْق وآيات الأَمْر. فإذا كان ربُّنا سبحانه وتعالى هو صاحب الخَلْق والأَمْر في هذا العالَم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، فإنَّ سُنَنه سبحانه تشمل سُنَن الكون المخلوق، سواء ما كان من أمر العالَم الطبيعي من الذَّرَّة إلى المَجرَّة، ومن الخلية إلى الكائنات الحيوانية والنباتية، وما فيها من سُنَن الخَلْق. وكذلك تشمل سُنَنه سبحانه في الوجود البشري والاجتماع الإنساني، بما في ذلك ما يختصُّ بالنفس الإنسانية وأحوالها، وسلوك الأفراد وتعاملاتهم، وقيام المجتمعات والأُمم وانهيارها، ممّا يُعَدُّ من سُنَن الأمر.

وقد أوضح الله سبحانه سُنَنه في كتابه المنظور، بكثير من الآيات المتلوَّة التي تلفت النظر إلى آيات الله تعالى في تقلُّب الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر إلى أجل مُسمّى، وتكوُّن السحب وحركتها، ونزول الماء، وإنبات النبات، وكرَّر توجيه الإنسان إلى السَّيْر والنظر في ملكوت السماء والأرض، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]، وقوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: 101]، وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: 8]. فلا قيمة للسَّيْر والنظر دون تفكُّر وتعقُّل، ودون تدبُّر واعتبار؛ فالمُهِمُّ في السَّيْر والنظر هو إعمال منافذ الوعي والإدراك من أعين وآذن وقلوب، كلٌّ منها في وظيفتها، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46].

وقد ذكر محمد قطب أمثلة على بعض السُّنَن التي يُمكِن تبيُّنها في القرآن الكريم (قطب، د.ت، ص56)،[7] في السياق الذي كان موضوع اهتمامه، وهو السُّنَن ذات الصلة بالتفسير الإسلامي للتاريخ، وتبيَّن لنا من طريقته في ذكر هذه السُّنَن أنَّ أقدار الله سبحانه في حياة البشر كلها سُنَن، فذكر – مثلاً – سُنَّة التمكين، وسُنَّة الابتلاء، وسُنَّة الإملاء، وسُنَّة الكدح، وسُنَّة التدمير. ثمَّ أشار إلى أنَّ

[7] لم يكن محمد قطب بصدد ذكر قائمة تضمُّ السُّنَن؛ فهذا موضوع تركه للدراسات المُتخصِّصة.

كل سُنَّة تجري في حياة الناس، إنَّما تجري "من خلال سُنَن أُخرىٰ في الحياة البشرية. فالواقع أنَّ السُّنَن الإلهية لا تعمل فرادىٰ، إنَّما تعمل مُجتمِعة، وتكون النتيجة الواقعية هي حصيلة السُّنَن العاملة كلها في آنٍ واحد أو بالأحرىٰ، حصيلة تعامل الإنسان مع مجموع السُّنَن التي تعرَّض لها أثناء حركته في الأرض" (قطب، د.ت، ص59). ولهذا، فإنَّ اللازم في دراسة السُّنَن إعمالُ الرؤية الكلية التي تكشف عن التكامل والترابط بين السُّنَن، بما في ذلك التكامل بين أنواع السُّنَن الكونية والاجتماعية والنفسية، والتكامل بين مفردات السُّنَن في النوع الواحد منها.

وقد حَفَلَ القرآن الكريم بذكر سُنَن الله تعالىٰ بلفظ "السُّنَن" أو بما يدلُّ عليها، في آيات تخصُّ السُّنَّة الكونية، وآيات أُخرىٰ تخصُّ السُّنَّة الاجتماعية. وقد يأتي نوعا الآيات في سياق واحد؛ ليدلَّ ذلك علىٰ التكامل في سُنَن الله تعالىٰ، وأنَّها تعمل معاً؛ فهي لا تعمل في الغالب فرادىٰ، وإنَّما تعمل مُجتمِعة، لا سيما في حياة المجتمعات والشعوب (قطب، 1991، ص53)، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [الحج: 60-61]. فإذا كانت سُنَّة الله أنْ ينصر مَنْ وقع عليه البغي، فإنَّ سُنَّته كذلك تقليب الليل والنهار، والقادر علىٰ الثانية قادر علىٰ الأولىٰ.

### 4. مقاصد السُّنَن

إنَّ أهمَّ مقصد من مقاصد السُّنَن هو الاعتبار، وقد جاءت الألفاظ القرآنية الـمُشتَقَّة من جذر "عَبَرَ" في تسعة مواقع، منها موقع يتحدَّث عن عابر السبيل؛[8] وهو الـمسافر غير الـمقيم، فهو يعبر بلداً غير بلده، وهو مسافر إلىٰ بلده، كمَنْ يعبر من ضَفَّة النهر إلىٰ مقصده في الضَّفَّة الأُخرىٰ. ومنها تعبير الأحلام؛[9] أيْ تأويلها بالعبور من الـمعنىٰ الرمزي إلىٰ الـمعنىٰ الحقيقي الذي هو الـمقصود، فتتحقَّق العِبْرة. أمّا الـمواقع السبعة الأُخرىٰ فقد جاء فيها لفظ "العِبْرة" بالاسم "عبرة" أو بالفعل "فاعتبروا". وسياقات الاعتبار هي:

---

8 قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ [النساء: ٤٣].

9 قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

أ. الاعتبار بقصص الماضين: جاء ذلك في سورة يوسف ﷺ، مُمثَّلاً بقِصَّته كاملة التي تضمَّنت سلسلة من الحلقات، بصورة تختلف عن قِصَّة كلّ نبيٍّ مع قومه، كما كان حال قصص الأنبياء مع أقوامهم؛ إذ جاءت قِصَّة يوسف ﷺ قصةً كاملة بكل وقائعها وأحداثها المتتابعة، في سورة واحدة، وتناولت عدداً من المسائل، منها: المشاعر النفسية، والعلاقات الاجتماعية، وأنواع الابتلاء، والرؤى والأحلام، والموارد الاقتصادية، وحياة المُؤمِن تحت حُكْم غيره، والحنكة في الإدارة، ومزايا الجغرافيا، ... وختم الله سبحانه السورة، بتفاصيلها وأغراضها، بالتنبيه على ضرورة أخذ العِبْرة من كل تلك القصص، والتنوية بأنَّ مَنِ اعتبر بها فهو من أُولي الألباب.[10]

ب. الاعتبار بنوعٍ آخر من قصص الماضين: هو ما يختصُّ بقدرة الله على نصْر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وإخراج بني النضير من قصورهم المنيعة.[11] وفي كلتا الحالتين، فقد كان في ذلك عِبْرة لأُولي الأبصار. وقريب من هذا تأتي آيات سورة النازعات على ذكر ما كان من أمر فرعون، وكيف أخذه الله نكال الآخرة والأولى؛[12] ففي ذلك عِبْرة لِمَنْ يخاف ربَّه، فلا يكون مصيره مصير فرعون الذي لم يكن يخشى أو يعتبر.

ت. الاعتبار بما سخَّره الله للإنسان من الأنعام وفوائدها: جعل الله تعالى الأنعام مُسخَّرة للناس، ومُدجَّنة لهم، وطائعة، بحيث يأخذون منها من بين فَرْث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، ومنها يأكلون.[13]

---

10 قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: 111].

11 قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران: 13]، وقوله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: 2].

12 قوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: 17-26].

13 قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل: 66]، وقوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المؤمنون: 21].

ث. الاعتبار بالـمَشاهد الكونية: جاء في سورة النور السياقُ بذكر السحاب، والوَدْق الذي يخرج من خلاله، والبَـرَد، والبَرْق، ثمَّ تقليب الليل والنهار. وفي كل ذلك عِبْرة لأُولي الأبصار.[14]

إنَّ سُنَن الله تعالىٰ في الـماضين من الأنبياء، والأُمم، والزعماء، كانت تأتي بعد مقاطع قصيرة أو طويلة من قصص تتناسب مع مقصدها وغرضها في الاعتبار. وكان سرد هذه القصص يتمُّ بأساليب مُتنوِّعة، وكان مقصد الاعتبار يُذكَر بأساليب مُتنوِّعة، منها لفت الانتباه إلىٰ أنَّـها مُوجَّهة إلىٰ أُولي الألباب، وأُولي الأبصار، وأُولي النُّهىٰ. ومنها ما يستثير أدوات الوعي والإدراك عند الناس وتحفيزها: (لعلَّكم تعقلون)، (أفلا تبصرون)، (لقوم يتفكرون) ...

وقد ورد تركيب (أُولو الألباب) في القرآن الكريم في ستة عشر موقعاً في سياق التنبيه علىٰ أربعة مقاصد، تتكامل دلالاتها في منظومة الحياة العقلية والعملية للمؤمنين، وهذه الـمقاصد هي:

أ. مقصد التذكُّر والتدبُّر: مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: 29].

ب. مقصد حُسْن الاتِّباع: مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: 18].

ت. مقصد التقوىٰ: مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 197].

ث. مقصد الاعتبار والتفكُّر في مجالين: مجال التفكُّر في آيات الله الـمنظورة من الـمخلوقات، ومثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 190-191]. ومجال الاعتبار بقصص الـماضين، ومثال ذلك قوله

[14] قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ [النور: 43-44].

تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: 111].

فكأنَّ الله سبحانه وتعالى يُوجِّه خطابه إلى أُولي الألباب؛ أيْ إلى أصحاب العقول الراجحة، فيسمعون (أو يقرأون) آيات الله عن الآفاق والأنفس، وعن سُنَنه الجارية في الناس كما يسمعون (أو يقرأون) قصص الماضين، عسى أنْ يكون منهم التفكُّر والتدبُّر في قدرة الله وعظمته، فتخشع قلوبهم لذكر الله، ويتزوَّدوا بزاد التقوى، ويتحرَّوا حُسْن الاتِّباع؛ لِما في هذه الآيات من الهدى والرحمة، فيكون منهم التفكُّر والتدبُّر والاعتبار، وهو ما يقودهم -في نهاية المطاف- إلى ممارسة حياتهم العملية في ضوء ذلك كله.

فالاعتبار هو شأن أُولي الألباب الذين يُحقِّقون في أنفسهم وفي حياتهم هذه المقاصد التي تتكامل فيما بينها، لا ليكون العِلْم بها معرفة عقلية نظرية، بل ليكون منهج فهم وتفكير، وبحث واكتشاف، وتسخير وتوظيف.

وبينما جاء لفظ "العِبْرة" خطاباً لأُولي الأبصار، فقد جاء ذكر أُولي الأبصار في أربعة مواقع، كان السياق في ثلاثةٍ منها يذكر أنَّ الآيات الواردة هي عِبْرة لأُولي الأبصار. أمّا الموقع الرابع ففيه تنويهٌ بمكانة ثلاثة أنبياء، هم: إبراهيم وابنه إسحق، ويعقوب بن إسحق، بأنَّهم أولو الأيدي؛ أي القوَّة في الدين، وأنَّهم أولو الأبصار. والأبصار هنا: جمع "بصر" بالمعنى المجازي، وهو النظر الفكري المعروف بالبصيرة؛ أي التبصُّر في مراعاة أحكام الله تعالى، وتوخّي مرضاته، كما يرى ابن عاشور (ابن عاشور، 1984، ج23، ص276).

ومع أنَّ لفظ "الاعتبار" في القرآن قد ورد بلفظه في ما يختصُّ بالتاريخ وقصص الأقدمين، فإنَّه جاء بلفظه كذلك في سياق تفاصيل ما يُجريه الله تعالى من سُنَن كونية وَفق نظام وتقدير، وتوجيه الناس إلى السَّيْر والنظر والتفكُّر والتعقُّل في آيات الله في الآفاق والظواهر والأحداث الطبيعية. ومثال ذلك ما جاء عن نزول المطر، وما يسبقه، ويصاحبه، وينتج منه، وما يكون معه من تقلُّب الليل والنهار؛ ليكون في هذا التفصيل تعقُّل وتفكُّر في هذه الظواهر التي يشهدها الناس، فلا

يـمرّون عليها وهم عنها غافلون، بل يأخذون العِبْرة من ذلك. ويكون الاعتبار هنا بالإيمان بقدرة الله وحكمته وعدله، ويكون أيضاً بربط الأحداث والظواهر بأسبابها ونتائجها؛ اكتشافاً، وفهماً، وتسخيراً. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: 43-44].

وقد ارتبط معنى السُّنَّة والاعتبار بها بما مضى وخلا؛ للفت الأنظار إلى ما في التاريخ من دواعي الاعتبار والاستفادة من الوقائع والأحداث، وما كان من أسبابها، وما انتهت إليها نتائجها. فالاعتبار بالماضي يعني دراسة التاريخ، وتتبُّع أحداثه؛ لاكتشاف السُّنَن والاعتبار بها. وقد جاء لفظ "خلت" في مواقع كثيرة؛ لبيان أهمية الاعتبار بالماضي، من مثل قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر:85]، وقوله ﷻ: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: 23]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 134]، وقوله سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137]، وقوله عزّ من قائل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]، وقوله جَلَّ جلاله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: 6]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [الأعراف: 38]، وقوله جَلَّ في علاه: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ [الأحقاف: 17]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: 21]، وقوله سبحانه: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [الأعراف: 38]، وقوله ﷻ: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ [الرعد: 30]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: 13]، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: 38].

ويدعم معنى الـماضي كذلك أنْ نجد في القرآن الكريم استعمال فعل الـماضي مع السُنَّة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]. وفي الـمعنى كذلك جاء استعمال الـمثل الذي مضى في قوله سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: 6]، وقوله ﷻ: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ [الزخرف: 8]. إذن، فمن الواضح ارتباط معنى السُّنَّة بالماضي الذي خلا وذهب، وبقيت منه العِبْرة لَمنْ يريد أنْ يعتبر، ممّا يأتي في الزمن بعد

ذلك الماضي؛ لأنَّ السُّنَّة ماضية ومستمرة في اللاحقين. والاستمرار والتكرار والعودة يَرِدُ كذلك في سياق السُّنَن. قال تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: 8]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ [الأنفال: 19]. والسُّنَّة تتكرَّر وتَطَّرِد كلَّما توافرت أسبابها وشروطها، بناءً على مُطلَق الإرادة الإلهية؛ فلا يملك أحد أنْ يجري تغيير السُّنَّة أو تبديلها. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: 43)

أمّا الثقافة السُّنَنية التي يريد القرآن الكريم أنْ يُعلِّمها للناس فهي أنَّ ما يجري في العالَم الطبيعي والعالَم الاجتماعي من أحداث وتغيُّرات ووقائع، إنَّما يحدث وَفق سُنَن وقوانين وعادات تَتَّصِف بالاستمرار والاطِّراد، ولا تحدث خبط عشواء، ولا تأتي من قبيل المصادفة، وأنَّ ما حدث في الماضي بأسبابه يحدث اليوم، وسيحدث غداً إذا توافرت أسبابه. وهذا باب من أبواب فهم ما يحدث على ساحة العالَم اليوم، وما سيحدث مستقبلاً. فما يُمكِن توقُّعه في المستقبل لا يتمُّ وَفق ما يرغب فيه الإنسان ويتمنّاه. فإذا أردنا أمراً فما علينا إلّا أنْ نُهيِّئ أسبابه، ليكون وَفق السُّنَّة، وبذلك يكون الاعتبار بالسُّنَّة.

وقد نصَّ القرآن الكريم صراحةً على أنَّ توجيه الناس إلى هذه السُّنَن هو للبيان والهداية والاعتبار. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26]. فإذا أرادت الأُمَّة أنْ تهتدي إلى السُّبُل المُؤدِّية إلى الترقّي والتقدُّم والخروج من حالة الغثائية والتخلُّف والفُرقة، فهذه هي السُّنَن المُبيِّنة والهادية، وهي التي تُقدِّم خريطة الطريق إلى فهم الماضي والحاضر والمستقبل.

إنَّ الثقافة السُّنَنة هي أفكار ومعلومات ومبادئ، يتأسَّس عليها سلوك عملي في مواقف الحياة؛ ومواجهة قضاياها وأسئلتها وتحدِّياتها. ومن هذه الأفكار معرفةُ السُّنَن وفهمها وتسخيرها. ومعرفة السُّنَن تعني تمييز السُّنَّة ممّا ليس من السُّنَّة، ومعرفة خصائص السُّنَن، وأنواعها، وحدود فعلها، واكتشاف السُّنَن وتوظيفها في السلوك والعمل. وهذا يعني التفكير على أساس هذه

الـمعرفة، في تحديد السلوك الـمناسب والنتائج الـمُتوقَّعة لهذا السلوك. ويكون ذلك في مجال التعامل مع جميع قضايا الحياة ومشكلاتها، وليس في مجال دون آخر، تعاملاً يُحقِّق الـمصالح، ويدرأ الـمفاسد.

وتجتمع في التفكير السُّنني كلّ فضائل التفكير السليم وأنواعه وخصائصه؛ فالإنسان في التفكير السُّنَني يُعْمِل كل مَلَكات الوعي والإدراك؛ من: تفكُّر، وتعقُّل، وتدبُّر، وتذكُّر؛ فهو تفكير علمي استدلالي (بالاستقراء، والاستنتاج) يعتمد التحليل المنطقي أو التجربة العملية، وَفق ما يَلزم الموقف من أيٍّ منهما، وهو تفكير سببي يربط الأسباب بالنتائج، والـمُقدِّمات بالمآلات، وهو تفكير نقدي يتفحَّص ما قد يكون من الجديد الـمُسعِد أو الخَلَل الـمُقعِد.

ولكنَّ أهم خصائص التفكير السُّنَني أنَّه تفكير مستقبلي استراتيجي؛ لصلته المباشرة بالاعتبار. ومن ثَمَّ، فمفهوم "الاعتبار بالسُّنَّة" يعني فهم حالة الإنسان في واقعها، والاتجاهات التي تتحرَّك هذه الحالة فيها. لذا، فهي تكشف عمّا يُمكِن أنْ يحصل مستقبلاً. ولذلك، فإنَّ التفكير السُّنَني يُمكِّن الإنسان من معالجة السُّنَّة بسُنَّة أُخرىٰ. فإذا كانت العوامل التي تتحكَّم في حركة الواقع تؤدّي إلىٰ الانحدار والتقهقر والفشل والهزيمة، فيجب علىٰ مَنْ يُفكِّر سُنَنياً أنْ يأخذ بالعوامل التي تُوجِّه حركة الواقع إلىٰ الصعود والنهوض والنصر.

هذا النوع من التفكير السُّنَني لن يقبل بـما قد يسود من خرافات مهما كَثُرَ عدد الـمُعتقِدين بـها، ولن يقبل التفكير الجبري الذي يُخطِئ في فهم قَدَر الله وإرادته، ويفرُّ أصحابه بهذا الفهم الخطأ إلىٰ الاستكانة والعجز، ويُردِّدون مقولة: "ليس بالإمكان أبدع مـمّا كان"، ولن يقبل التفكير السُّنَني بـالتفكير الآبائي الذي اعتادت عليه أجيال سابقة من أنماط التفكير، من قبيل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]، ويعجز أصحابه عن التعامل مع مُحدِّدات الواقع الـمُتغيِّر ومستجداته ومُتطلَّباته.

## ثانياً: في معنى الأُمَّة

### 1. الدلالات المعيارية والعملية لمفهوم "الأُمَّة"

جاء لفظ "الأُمَّة" في القرآن الكريم في ستة وأربعين موقعاً بصيغ المفرد والجمع (أُمَّة، وأُمم) والتعريف والتنكير (الأُمَم، أُمم)، والمخاطب (هذه أُمَّتكم)، والغائب (تلك أُمَّة) بعدد من المعاني، شاملة الإنس والجن: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38]، والدواب والطير: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]. وكلها تعني اجتماع أفراد هذه الكائنات بأعداد كبيرة للقوم كلّهم، أو لجماعة منهم، كما وردت بمعنى اجتماع مفردات الزمن: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ [هود: 8]. وجاءت بمعنى الفرد الواحد الذي يُؤتَمُّ به: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النحل: 120]، وبمعنى المِلَّة أو الدين: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: 22].

وبين "الأُمَّة" بهذه المعاني المُتعدِّدة نسب وصلة بعدد من مشتقات الجذر "أَمَمَ"، مثل الأُمِّ، والإمام، والأُمِّيِّ، والأَمِّ بمعنى القصد. أمّا الحديث عن تعدُّد المعاني، واتِّصال بعضها ببعض، فليس من شأن هذا البحث، وإنَّما الذي يهمُّنا هو الأُمَّة بمعنى الجماعة من الناس. والمواقع التي ورد فيها هذا المعنى تشير إلى تعدُّد الأُمم في المكان الواحد، وإلى تتابع الأُمم في الأزمان المختلفة، وأنَّ هذا التعدُّد هو مشيئة الله ﷻ، وأنَّها ظاهرة باقية، وأنَّ الله سبحانه جعل للأُمم شرائع ومناسك مختلفة، وأنَّ الناس سيأتون يوم القيامة إلى ربِّهم أُمماً مختلفةً، وأنَّهم كما كانوا في الدنيا أُمماً مختلفةً في الإيمان أو الكفر، فسوف تختلف عاقبتهم في الآخرة؛ في الجَنَّة أو في النّار.

وفي حال تخصيص مصطلح "الأُمَّة" وقَصْره على الناس، فإنَّ الأُمَّة (بضَمِّ الهمزة) اسمٌ للجماعة الذين أمْرُهم واحد، وهي مُشتَقَّة من الأَمِّ (بفتح الهمزة)، وهو القصد؛ أيْ يَؤُمّون غاية واحدة. وإنَّما تكون الجماعة أُمَّة إذا اتَّفقوا في الموطن أو الدين أو اللغة أو في جميعها (ابن عاشور، 1984، ج2، ص298). ويُؤكِّد ابن عاشور أنَّ ما يَتَّفِق عليه الناس الذين يشملهم مفهوم "الأُمَّة" لا بُدَّ أنْ يكون

"من عظائم أمور الحياة". ونظراً إلى سياقات مُتعدِّدة يَرِدُ فيها لفظ "الأُمَّة" في القرآن الكريم؛ فإنَّ معنى الأُمَّة يَتَّضِح "في كل مقام بما تدلُّ عليه إضافتها إلى شيء من أسباب تكوينها" (ابن عاشور، 1984، ج12، ص188).

ونجد لفظ "الأُمَّة" في الأحاديث النبوية بالمعاني نفسها التي وردت في القرآن الكريم، فنجد أخباراً عن الأُمَّة التي يُبعَث فيها نبيُّها، وعن الأُمم الذي سبقت أُمَّة النبيِّ محمد ﷺ. وكذلك نجد أحاديث كثيرة يَرِدُ فيها لفظ "أُمَّتي"؛ أيْ أُمَّة محمد عليه الصلاة والسلام، لا سيَّما في سياق الحديث عن خصوصيات هذه الأُمَّة، وشأنها وموقعها بين الأُمم الأُخرى في الدنيا والآخرة. وقد ورد في الأحاديث أيضاً أنَّ الكلاب أُمَّة من الأُمم، وأنَّ النمل أُمَّة من الأُمم. وممّا يلفت الانتباه أنَّ لفظ "الأُمَّة" قد ورد في صحيفة المدينة بمعنى "الأُمَّة الدينية" التي تجمع أُمَّة المؤمنين بالإسلام، من سكّان يثرب (المدينة) من المهاجرين والأنصار، و"الأُمَّة السياسية" التي تكوَّنت من "الأُمَّة الدينية"، إضافةً إلى "مَنْ تبع بهم، وجاهد معهم"، وإلى تسع طوائف من اليهود وردت أسماؤها تحديداً في الصحيفة، وأنَّهم "أُمَّة مع المؤمنين"، ولكنَّ لكلٍّ دينه، ويجمعهم كيان سياسي واحد، ولكل فئة من الفئات حقوق، وعليها واجبات من التناصر، والنفقة، والتضامن، والدفاع المشترك عن المدينة. وبهذا جاء التمييز بين لفظ "الأُمَّة" بالمعنى الديني، ولفظ "الأُمَّة" بمعنى الكيان السياسي أو الدولة.

وكان موضوع الأُمَّة في التراث الإسلامي يَرِدُ في الدراسات الفقهية الخاصّة بقضايا الخلافة والإمامة، بالإشارة إلى حقِّ الأُمَّة، وإجماع الأُمَّة، وبيعة الأُمَّة، ... وفي مجالات العلاقات النفسية والاجتماعية، بالإشارة إلى مشاعر التوادِّ والتعاطف والتراحم بين المؤمنين. صحيحٌ أنَّ هذين المعنيين لا يزالان قائمين ومُستعمَلين في الدراسات الحديثة على المستوى النظري، ولكنَّ المعالجة التي تفرض نفسها بقوَّة اليوم في ما يختصُّ بالأُمَّة، إنَّما تتناول أسئلة الحُكْم ونُظُم السياسة في مجالاتها العملية (الداخلية، والخارجية).

والمسألة هنا ليست مسألة تطوُّر في مفهوم "الأُمَّة" وَفق تطوُّر الوعي البشري في الحاجة إلى إدارة الحُكْم وتنظيم حياة الأفراد، أو وَفْق تطوُّر الخبرة في أنماط هذه الإدارة والتنظيم، وإنَّما هي في طبيعة

الاجتماع البشري ومُتطلَّباته؛ فالإنسان مدني بالطبع منذ وُجِد، وكان كل رسول يأتي لأُمَّته أو لقومه خاصةً، إلّا خاتمهم؛ فقد جاء للناس كافةً، وكان أغلب خطاب الله تعالى في القرآن الكريم للأُمَّة المؤمنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وللناس كافةً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. وحتى عندما يكون الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾، فهو ليس لفرد من الناس فحسب، بل هو للنوع البشري عامةً.

وعندما أخذ الفكر العلماني يمتدُّ إلى ساحة الأُمَّة الإسلامية، ووجدْنا مَنْ يُصِرُّ على أنَّ الدين علاقة شخصية بين الفرد وربِّه، وأنَّ مسائل الحياة العامة للأُمَّة والمجتمع والدولة هي مسائل "مدنية" لا علاقة لها بالدين؛ كان لا بُدَّ من إعادة الاعتبار إلى موقع الأُمَّة في دين الله، وبيان أنَّ الأُمَّة هي الأصل. فالرسول ﷺ "خلَّف وراءه عند وفاته "أُمَّة" قبل أنْ يُخلِّف إماماً، وأنَّه لو لم تكن الأُمَّة لما وُجِد مَنْ يَؤُمُّها. ومن ثمّ، فإنَّ وجود الإمام منسوبٌ أو مُشتَقٌّ، والأُمَّة أو الجماعة تصير هي الأصل ... أيْ أنَّ أُمَّة القرآن هي باقية ببقاء الذكر الحكيم ... أمّا اختفاء الإمام -وإنْ أضْعفَ وحَطَّ من فاعلية الأُمَّة -... إلّا أنَّه مع ذلك لا ينفي وجودها الذي يُعَدُّ هو ذاته ضماناً لتجدُّدها ... فالإسلام عندما جاء بأُمَّة لم يقرنها بحتمية نظامية مُعيَّنة، ومن هنا صارت قيمة عُليا ثابتة لا تحبسها أُطُر جامدة. بل هي القادرة على إيجاد الأشكال والصياغات النظمية التي تتلاءم ومعطيات العصر" (أبو الفضل، 1996، ص23-24).

وقد خصَّص الريسوني كتاباً كاملاً لتأكيد التصوُّر الإسلامي لمكانة الأُمَّة والدولة، وأنَّ الأُمَّة هي الأصل، ومن ثَمَّ فلها الأولوية على الدولة، والدولة تابعة للأُمَّة، والخطاب الفردي تبع للخطاب الجماعي. ورأى الريسوني أنَّ "هذه الـمعاني قد تعرَّضت للضمور والاختلال، بل إلى الانقلاب والانعكاس، وهو ما أفقد الأُمَّة مكانتها وقدرتها على الريادة والعطاء والإبداع، وحوَّلها إلى مُجرَّد ركام ضخم من الأفراد الـمُتفرِّجين الـمُستهلِكين والـمُستهلَكين، بينما تضخَّمت الدولة حتى صارت هي الأصل" (الريسوني، 2012، ص11).

وقد استخدم طارق البشري مفهوم "الأُمَّة" في تحليله واقع الـمسلمين اليوم، من حيث لغة الدول، والنُّظُم السياسية، والمجتمعات والجماعات، والمذاهب، والتشكيلات الاجتماعية ... وهو

بهذا يعطي الأُمَّة مفهوماً تاريخياً وثقافياً وحضارياً، فيمرُّ بالتطوُّر التاريخي للأُمَّة، ويتوقَّف عند الواقع الـمعاصر الذي يراه حصيلة الوقائع والأحداث والحقائق الـمُتعلِّقة بالقرون الثلاثة الأخيرة من تاريخ الـمسلمين، ليصل -في نهاية الـمطاف- إلى القول: "نحن لسنا أمام عقيدة دينية مُجرَّدة تقتصر فقط على الإيمان بالله سبحانه وبنبيِّه عليه أفضل الصلاة والسلام، ولكنَّنا أيضاً أمام دولة نشأت، ونُظُم سياسية تشكَّلت، وجماعة أو جماعات سياسية تكوَّنت، وعاشت بهذا التكوين الثقافي قروناً بلغت أربعة عشر قرناً حتى الآن، تضمُّها شرعية جهوية ذات مصدر عقيدي واحد، وتفاعلت مع بيئات جغرافية ومواريث حضارية شتّى" (مصطفى، 2015، ج1، التقديم، ص12).

وقد ميَّز البشري بين مفهوم "الأُمَّة" ومفهوم "الدولة"، ورأى أنَّ هذا التمييز يحتاج إلى وقفة طويلة؛ نظراً إلى ما بين المفهومين من علاقة مُعقَّدة، لكنَّه لم يتردَّد في القول بأنَّ "الدولة" مفهوم سياسي، وأنَّ "الأُمَّة" مفهوم فكري اجتماعي (البشري، 2011، ص13). وعندما نتحدَّث عن أيِّ شأن من شؤون الأُمَّة، فإنَّه يُتوقَّع أنْ نكون على قَدْر من الوعي بمعنى "الأُمَّة" التي نتحدَّث عنها. ومن الواضح أنَّ معنى "الأُمَّة" في التفكير الإسلامي يتصل بكيان ديني يجمع الـمؤمنين بالإسلام، وهو معنى لا تلتقطه كلمة nation باللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأُخرى، التي تعني غالباً -في السياق الـمعاصر- سكّان الدولة ضمن حدودها السياسية "الوطنية". والسؤال الذي لا بُدَّ أنْ يُثار هنا هو: هل يُمكِن الجمع بين هذين الـمعنيين، فيكون حديثنا عن شؤون الأُمَّة الإسلامية، ليتناول سائر الـمؤمنين بالإسلام، بالرغم من وجودهم عملياً في كيانات سياسية مختلفة، أم أنَّ معنى "الأُمَّة الإسلامية" لا يَصْدُق إلّا عندما تجتمع في الواقع العملي في كيان سياسي واحد؟

ويتوجه السؤال هنا إلى معنى الكيان السياسي الواحد، لا سيَّما عند البحث عنه في التجربة التاريخية الإسلامية أو في تصوُّره في الواقع الـمعاصر. ومن الـمُؤكَّد أنَّ ثـمَّة أسئلة تفصيلية كثيرة تتوارد عند محاولة الإجابة عن أيٍّ من السؤالين الـمذكورين آنفاً.

ونحن في حدود هذا البحث نودُّ أنْ نتعامل مع الواقع القائم في العالَـم الذي نعيش فيه، فنرىٰ أنَّ الأُمَّة الإسلامية اليوم أُمَّة قائمة، في حالة من حالات القيام، بالرغم من توزُّعها في كيانات سياسية مُتعدِّدة، وبالرغم مـمّا قد يكون بين هذه الكيانات من خلافات.

ونحن نبني رؤيتنا هذه علىٰ أساس الـمسؤولية التي يتحمَّلها كل فرد من أفراد هذه الأُمَّة، وللمسؤولية مجالات مُتعدِّدة. وعلىٰ أيَّة حال كان واقع الأُمَّة، فإنَّ مسؤولية الفرد حاضرة؛ فهو مسؤول عن نفسه في علاقته بالله سبحانه، فالإنسان مخلوق لخالق كرَّمه، وفضَّله، وأنعم عليه بنعم لا تُحْصىٰ لقاء أنْ يتحمَّل مسؤولية الخلافة في الأرض، وكل ما سيؤدّيه من مسؤوليات الخلافة بحقِّها هو عبادة. وهو مسؤول أيضاً عن جسمه ومَلَكاته التي بها يستطيع أنْ يتحمَّل الـمسؤولية، ومسؤول عمّا حوله من صلات الرحم والقربىٰ والجوار، ومسؤول عن الـمجتمع الذي يعيش فيه، في دوائر انتمائه وامتداداتها؛ فكل ذلك واجباتٌ مفروضةٌ عليه، ومسؤولياتٌ منوطةٌ به، وهو في كل ذلك يتحمَّل أيَّة مسؤولية لِما هو تحت رعايته؛ فالفرد الرجل يكون في الأُسرة ابناً، وأخاً، وأباً، وجَدّاً، وعَمّاً، وخالاً. وكذلك الحال بالنسبة إلىٰ الـمرأة. والفرد يُمارِس عملاً في الـمجتمع، ويكون علىٰ مستوىٰ من مستويات الـمسؤولية في ذلك العمل؛ فهو مسؤول عمَّن دونه في الـمسؤولية، ومسؤول أمام مَنْ يرأسه في الـمسؤولية، ومسؤوليته تختلف باختلاف ما هو مسؤول عنه؛ فكل فرد راعٍ ومسؤول عن رعيَّته.[15]

## 2. مُقوِّمات الأُمَّة وأركانها

إذا كان للإسلام أركان خمسة معروفة، فإنَّ وجود هذه الأركان لا يعني وجود بناء للإسلام؛ فالـمُهِمُّ هو البناء الذي تقوم عليه هذه الأركان. والإسلام هو بناء كامل، بُنِـي علىٰ أركان تأخذ قيمتها من وجودها في البناء، فإذا لم يُستكمَل البناء فإنَّ الأركان لا قيمة لها في حَدِّ ذاتها.

[15] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالـمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ- وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (البخاري، 1998، كتاب: الاستقراض، باب: العبد راعٍ في مال سيِّده ولا يعمل إلّا بإذنه، حديث رقم2409، ص451)، و(مسلم، 1998، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، حديث رقم1829، ص763).

ويتجلّىٰ بناء الإسلام في شخصية الإنسان الـمُسلِم، وفي كيان الأُمَّة الـمُسلِمة. وبالرغم من أنَّ الصلة وثيقة وضرورية بين بناء الفرد وبناء الأُمَّة، فإنَّ ثمَّة تفاصيل في مُقوِّمات بناء الفرد ومُقوِّمات بناء الأُمَّة.

إنَّ البناء في حقِّ الفرد المسلم هو بناء شخصيته الـمُتكامِلة؛ عقيدةً وعبادةً، وأخلاقاً وسلوكاً. وأيّـما كانت الجوانب الأُخرىٰ في بناء الإسلام مهمة، فلا يُمكِن التهوين من البناء الأخلاقي الفردي؛ إذ كم من الخير تَحقَّق في عالَـم البشر عن طريق هذا البناء الفردي. والمسألة هنا لا تقتصر علىٰ مَنِ اصطفاهم الله تعالىٰ من الرُّسُل والأنبياء وغيرهم من الشخصيات، فاستحقوا أنْ يُؤتَـمَّ بهم، ويُسار علىٰ سُنَنهم، وإنَّ كُلّاً من التاريخ القديم والتاريخ الحديث قد عرف شخصيات مُتميِّزة عن سائر الناس، بفضل مواقفها وإنجازاتها. وفي ما يختصُّ بالقديم، نكتفي ببعض مَنْ أشار إليهم القرآن الكريم؛ فمنهم مَنْ ذكر الله شأنه دون التصريح باسمه. قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص: 20]، وقال سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: 20]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [غافر: 28]. ومِنْ هؤلاء الأفراد مَنْ ذكر القرآن الكريم شيئاً عنهم، بأسمائهم أو بأوصافهم، من مثل لقمان، وذي القرنين. ولا ننسىٰ أنَّ مِنْ بين هؤلاء مَنْ كانوا سبباً في ضلال أقوامهم وهلاكهم: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79] دون رفع الـمسؤولية عن القوم: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54].

ومن التاريخ الحديث نتذكَّر كثيراً من الأفراد الذين كانت تتمثَّل في كلٍّ منهم شخصية الإنسان الـمُسلِم في السلوك والمعاملة. ألـم تكن الشخصية الفردية هي التعبير الوحيد عن بناء الإسلام في نظر الـملايين الذين دخلوا الإسلام في آسيا وإفريقيا لهذا السبب وحده، في مراحل مختلفة من انتشار الإسلام في العالَـم، ولا يزالون يدخلون الإسلام في سائر بلاد العالَـم حتىٰ اليوم؟ ولهذا، فمن

الـمُهِمِّ أنْ يكون بناء الفرد الـمُسلِم في شخصيته (نفساً، وعقلاً، وسلوكاً) موضع عناية في جهود الإصلاح وبناء الأُمم على الدوام.

ولكنَّ دين الإسلام ليس دين أفراد فحسب، بل هو دين أُمَّة تتكوَّن من جميع الأفراد الـمؤمنين بهذا الدين؛ إنَّه دين أُمَّة بمعنى فريد يستحق كثيراً من البيان. ويستحق أنْ يستند هذا البيان إلى الـمعنى الذي أراده الله تعالى في كتابه العزيز؛ فقد أشرْنا إلى أنَّ ذكر "الأُمَّة" في القرآن الكريم جاء ضمن مجموعة من الـمعاني، ولكنَّ هذه الـمعاني مُجتمِعة تتداخل وتتكامل فيما بينها ضمن دوائر مُتضامِنة، وضمن خصائص مُميَّزة.

ورُبَّما تكون أوسع الدوائر لمفهوم "الأُمَّة" في معنى دين الله الذي أراده للناس، وأرسل الأنبياء إليهم من أجله؛ فهو دين واحد. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]. والمؤمنون بهذا الدين هم أُمَّة واحدة. ففي سورة الأنبياء مثلاً بدأت الآيات الكريمة بذكر موجز للكتب التي نـزلت على موسى وهارون ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ثمَّ أخذت تذكر شيئاً عن إبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب، ثمَّ نوح وداود وسليمان وأيوب، ثمَّ إسماعيل وإدريس وذي النون وزكريا وعيسى، ثمَّ أعقبت على ذلك كله بالقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: 92]. وفي سورة المؤمنون، بدأ الله سبحانه بذكر نوح ﷺ، ثمَّ أشار إلى مَنْ جاء بعده مِنَ الرُّسُل والقرون والأُمم، وصرَّح بإرسال الرُّسُل متتابعين: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: 44]، ثمَّ خَصَّ موسى وهارون، ثمَّ خاطب الرُّسُل جميعاً بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: 51-52].

وهذا هو الأصل؛ فالأنبياء جميعاً جاءوا بالدين نفسه، وأتباع هذا الدين -مِمَّنْ لم يُحرِّفوا، ولم يُبدِّلوا ما جاء به رُسُلهم- هم أُمَّة واحدة. وفي كلتا السورتين (الأنبياء، والمؤمنون)، بيَّنت الآيات الكريمة بعد ذكر الأُمَّة الواحدة أنَّ الناس اختلفوا، وتقطَّعوا أُمماً: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء: 93]، ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]، وأنَّ مصير الناس جميعهم إلى الله يوم القيامَّة؛ لينال كلٌّ مصيرَه بالعدل الإلهي.

إذن، هذه هي الدائرة الواسعة (بل أوسع الدوائر) لمعنى الأُمَّة الواحدة؛ أُمَّة الـمؤمنين بدين الله الواحد الذي جاء به جميع رُسُل الله من الإله الواحد.

وثـمَّة معنى واسع آخر، ولكنَّه أضيق من الـمعنى السابق؛ فإذا كان محمد ﷺ هو آخر الأنبياء، وكان القرآن الكريم هو آخر الكتب الـمُنـزَّلة، فإنَّ الـمؤمنين بهذا النبيِّ هم أُمَّة واحدة، سواء أكانوا زمن الرسالة أم مِمَّنْ جاءوا بعد ذلك؛ لأنَّـهم هم الـمؤتـمنون على دين الله الواحد الذي جاء به جميع الأنبياء؛ فأبناء هذه الأُمَّة كافةً يؤمنون بجميع الأنبياء. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285].

وإذا كانت أُمَّة محمد ﷺ هي أُمَّة آخر الزمان، وكانت رسالته عامةً لِمَنْ أُرسِل فيهم في زمانه، ولسائر الناس مِنْ بعدهم، فإنَّ كُلّاً من الأنبياء السابقين كان يُبعَث إلى قومه خاصةً، وقد عبَّر القرآن الكريم عن كلّ قوم بلفظ "الأُمَّة"، ضمن معنى أكثر تحديداً للأُمَّة ممّا سبق بيانه. وكان من عدْل الله تعالى في التعامل مع البشر أنْ أرسل إلى كل أُمَّة رسولاً. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: 24]. وجاء اللفظ صريحاً أنَّ لكل أُمَّة رسولها. قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون: 44]. فالأُمَّة هنا هي القوم الذين أُرسِل إليهم رسول بعينه، ولم يُرسَل إلى غيرهم.

وإذا كان الـمسلمون أُمَّة واحدة في ما ينبغي أنْ يكون حالهم، فإنَّ في كيان الأُمَّة العام جماعاتٍ تقوم بمهام خاصّة، وكل جماعة هي أُمَّة، بـما هي مسؤولة عنه من الـمهام؛ فقد أُمِر الـمسلمون أنْ يكون من بينهم أُمَّة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن الـمنكر. قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: 104]. وبالرغم من أنَّ الأُمَّة هنا هي جماعة مخصوصة من أُمَّة الـمسلمين، فقد جاء لفظ "الأُمَّة" هنا ليعطي جميع الـمسلمين الصفة التي تقوم بها هذه الجماعة؛ فقد وجدْنا بعد هذه الآية، وقريباً منها، آيةً تصف الـمسلمين جميعاً بأنَّـهم خير أُمَّة أُخرِجت للناس. ومن وجوه الخيريَّة أنَّ أبناءها يأمرون بالمعروف، وينهون على الـمنكر، أو أنَّ من شروط خيريَّتها أنْ يكونوا كذلك. قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، أو أنْ تكون منهم جماعة تقوم بذلك من باب فرض الكفاية.

وقد تكون هذه الأُمَّة ذات المهمة الخاصة جماعة كبيرة أو صغيرة. قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف: 164]. فهاهنا ثلاث جماعات أو أُمم؛ الأولى: أُمَّة عصت، وارتكبت ما نهاها الله عنه. والثانية: أُمَّة لم ترتكب المعصية، وأخذت تَعِظ العصاة، وتنهى عن المنكر. والثالثة: أُمَّة لم ترتكب المعصية، ولكنَّها لم تنهَ عنها، فقالت الثالثة للثانية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: 164].

وقد تكون الأُمَّة شخصاً واحداً له من العزيمة والمكانة ما يقوم مقام أُمَّة في الفضل والتأثير، وهو أُمَّة بما كان يُمثِّله من العزم والقوَّة في بناء عقيدة التوحيد والحركة بها في الأرض. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]. وفي ذلك تنويه بالنبيِّ إبراهيم ﵇؛ لِما كان له من "الفضل والفتوَّة والكمال بمنزلة أُمَّة كاملة ... (و) كان أُمَّة وحده في الدين؛ لأنَّه لم يكن في وقت بعثته مُوحِّداً لله غيرُه، فهو الذي أحيا الله به التوحيد" (ابن عاشور، 1984، ج14، ص315-316).

وتتحدَّث منى أبو الفضل عن "الفرد الجماعة" و"الفرد الأُمَّة" في الإسلام عندما تربط عقيدة المُسلِم، وهي التوحيد، بتوحيد الشعائر التعبُّدية لوجدان المُسلِم وسلوكه في ظلِّ العقيدة؛ ليكفل هذا التوحيد التوافق الداخلي التامَّ بين الفرد والجماعة، بحيث يخرج لنا "الفرد الأُمَّة"، فيُدرِك الفرد بأنَّه من الأُمَّة، ورُبَّما يترقّى إدراكه ليكون هو ذاته الجماعة والأُمَّة (أبو الفضل، 1996، ص32).

ونحن نجد مصطلح "الأُمَّة" في القرآن الكريم عاماً، يشمل ما عرفه الجنس البشري في كل تاريخه من أُمم. وقد اقتضى عدل الله سبحانه مع البشر أنْ يُرسِل هدايته لكل هذه الأُمم، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾ [فاطر: 24].

واستُعمِل مصطلح "القوم" لكل جماعة من البشر لها خصائصها ومُقوِّماتها؛ فقَوْمُ كل نبيٍّ هم مَنْ أُرسِل هذا النبيُّ إليهم. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾

[إبراهيم: 4]. وقد جاءت نصوص مُحدَّدة من القرآن الكريم، لتكون آياتٍ لقوم يَتَّصِفون بخصائص مُحدَّدة: لقوم يتفكَّرون، لقوم يعقلون، لقوم يعلمون ...

وقد تكرَّر لفظ "قوم" في القرآن الكريم ثلاثمئة واثنتين وثمانين مَرَّةً. وربط ابن عاشور بين مصطلح "القوم" والـمُقوِّمات التي يقوم بها كل قوم وَفق ما يُميِّزهم من خصائص يتقوَّمون بها، وتُعبِّر عمّا لديهم من قِيَم. فعندما يتوجَّه الخطاب بالآية إلى "قوم يعلمون"، فإنَّ هذا التحديد لهؤلاء القوم يعني أنَّ "من شأنهم العِلْم؛ لِما يُؤْذِن به الـمضارع من تجدُّد العِلْم، وإنَّما يتجدَّد لِمَنْ هو ديدنه ودَأْبه؛ فإنَّ العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين. وذِكْرُ لفظ "قوم" إيماءٌ إلى أنَّـه رسخ فيهم وصف العِلْم، فكان من مُقوِّمات قوميتهم ... وفي هذا تعريض بأنَّ الذين لم ينتفعوا بتفصيل الآيات ليسوا من الذين يعلمون، ولا مِمَّنْ رسخ فيهم العِلْم" (ابن عاشور، 1984، ج11، ص97).

وعندما يتحدَّث القرآن الكريم عن سُنَن كونية مُعيَّنة، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد:3]، فإنَّ "كل واحدة من الأمور الـمذكورة تتضمَّن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير الـمُجرَّد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ "قوم"، إشارةً إلى أنَّ التفكير الـمُتكرِّر الـمُتجدِّد هو صفة راسخة فيهم، بحيث جُعِلت من مُقوِّمات قوميتهم؛ أيْ جبلتهم" (ابن عاشور، 1984، ج13، ص85). وهكذا في سائر السياقات الـمُماثِلة عن (قوم يعقلون)، و(قوم يذَّكَّرون).

وبالمقابل، فإنَّ النبيَّ يُحاجِج قومه ويجادلُـهم ويردُّ عليهم مُقترَحاتهم، ويرى أنَّ هذه الـمُقترَحات، إنَّما هي تعبير عن الجهل الـمُتأصِّل في قومه، فيقول لهم: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: 29]. وزيادة قوله (قوماً) تدلُّ على أنَّ جهلهم صفة لازمة لهم كأنَّها من مُقوِّمات قوميتهم (ابن عاشور، 1984، ج12، ص56).

فسُنَّة الله سبحانه في وجود الأُمَّة أنْ يكون لها كيانـها الـمُوحَّد؛ الـمُوحَّد في معتقداتها وأنظمتها ومشاعرها، والـمُوحِّد لأفرادها وجماعاتها في كيان واحد، والـمُوحِّد لطاقاتها ومواردها ومُقوِّماتها بما يعطيها من القوَّة والمهابة، ويفرض احترامها وتقديرها والاستماع لِما تعرضه وتُقدِّمه. فوحدة كيان الأُمَّة، إنَّما هي ضمان قوَّتها وهيبتها ومكانتها بين الأُمم.

ومن الـمُؤسِف أنَّ أيَّ حديث عن الأُمَّة الإسلامية اليوم رُبـَّما يُنوِّه ببعض تجلِّيات الوحدة في معتقداتـها ومشاعرها، ولكنَّه يُكثِر من مظاهر الفُرقة والتجزئة والاختلاف في أنظمتها، ومن الهدر في طاقاتها ومُقوِّماتها المادِّية. ويصل الحديث عن عمق مظاهر الفُرقة إلى صعوبة تـخيُّل إمكانية اجتماعها في كيان سياسي واحد أو دولة واحدة. ورُبَّـما يجري التذكير بأنَّ انقسام الأُمَّة إلى عدد من الكيانات السياسية كان ظاهرة معروفة في تاريخ الأُمَّة الإسلامية في معظم مراحل هذا التاريخ، ولكنَّ ذلك لم يـمنع من استمرار كثير من مظاهر الوحدة، التي كان لها تمثُّلات مُتعدِّدة، منها: حرية حركة أبناء الأُمَّة عبر الأقطار للإقامة والعمل والتجارة والعِلْم، ممّا لا يتوافر اليوم بين الكيانات التي تتوزَّع عليها الأُمَّة الإسلامية.

وقد تطوَّرت الخبرة البشرية اليوم في بناء الكيانات؛ لتمييز أشكال الترابط بين الناس في كل كيان، ما بين وحدة، واتِّحاد، وتكامل، وتنسيق ... وكثير من الـمجموعات البشرية الـمُتعدِّدة والمختلفة في الدين واللغة والعِرْق قد بَنَتْ فيما بينها كياناً واحداً يُوفِّر لجميع هذه المجموعات كثيراً من الـمصالح، ويُحقِّق لها من عناصر القوَّة السياسية والعسكرية والاقتصادية ما لا يتحقَّق لأيَّةِ مجموعة مُنفرِدة منها. ونحن نرى كيف أنَّ الولايات الـمتحدة الأمريكية كانت مثالاً على حشد إمكانيات سكّانها الذين جاءوا من كل أطراف الأرض؛ لبناء هذا الكيان الذي أصبح أقوى دولة وأغناها في العالَـم. ومثل ذلك في دولة الهند التي يجتمع فيها نحو ألف وأربعمئة مليون نسمة، يتوزَّعون على ديانات ولغات وأعراق مختلفة، وتجمعهم دولة واحدة، ومثلها في وحدة الدولة وتعدُّد الأديان واللغات والأعراق دولةُ الصين التي يبلغ عدد سكّانها نحو ألف وخمسمئة مليون نسمة. أمّا بالنسبة إلى الاتِّحاد الأوروبي، فبعد قرون مُتعاقِبة من الحروب الطاحنة بين دول أوروبا، اتَّفقت هذه

الدول على تكوين هذا الاتّحاد الذي حقَّق لكل دولة من المصالح ما لم يكن بالإمكان أنْ يتحقَّق لكلٍّ منها مُنفرِدة.

وبالمُقابِل، فإنَّ الأُمَّة الإسلامية أكبر في عدد أبنائها، وفي مُقوِّماتها المادِّية والمعنوية من أيٍّ من هذه الكيانات، ومع ذلك فقد فشلت في تحقيق الحَدِّ الأدنى من مظاهر الوحدة، أو الاتِّحاد أو التنسيق أو التكامل أو التعاون ... في تبادل المصالح والمنافع. والأكثر إيلاماً لنفوس المؤمنين ليس عدم قيام الوحدة أو الاتِّحاد، وإنَّما فشل محاولات التعاون والتكامل بين دول الجوار، في حين يستمر النجاح في جهود التجزئة والانقسام في عدد من الحالات.

وفي ظلِّ هذا التنوُّع في دلالات لفظ "الأُمَّة" في القرآن الكريم، من العموم والخصوص والسعة والتحديد، فلا بُدَّ أنْ نُؤكِّد أهمية القِيَم في مفهوم "الأُمَّة". فالذي يجمع أفراد الأُمَّة ليس أنَّهم من قوم واحد أو أنَّهم يعيشون في مجتمع واحد؛ إذ لم يكن أفراد قوم موسى -مثلاً- على الحالة نفسها من القِيَم. فكل فئة من قومه تجمعها منظومة من القِيَم؛ ما يعني وجود أُمَّة خاصة قال الله سبحانه عنها: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: 159]. وهذا يعني أيضاً أنَّ ثمَّة أُمَّةً أو أُمماً أُخرى من قوم موسى ليست من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون؛ فقد سبق هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ [الأعراف: 148]. فوجود أُمَّة من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون من قوم موسى، تخصيصٌ لظاهر الآية التي تشير إلى أنَّ قوم موسى اتَّخذوا عجلاً؛ و"قُصِد به الاحتراس لئلّا يُتوهَّم أنَّ ذلك قد عمله قوم موسى كلهم، وللتنبيه على دفع هذا التوهُّم، قدَّم "ومن قوم موسى" على مُتعلَّقه" (ابن عاشور، 1984، ج9، ص142).

وحين تأمَّل طه عبد الرحمن هذه الآية، فإنَّه ميَّز مفهوم "المجتمع" من مفهوم "الأُمَّة"؛ فالمجتمع هو اجتماع مجموعة أفراد يسلكون سبيل الاشتراك في سَدِّ الحاجات وأداء الخدمات، وهذا الاجتماع يقوم على "العمل التعاوني" الذي يَلزم "التعاون بين الأفراد المختلفين أو بين المجتمعات المختلفة". والتعاون قد يكون على البرِّ والتقوى، وقد يكون على الإثم والعدوان. "أمّا الأُمَّة فهي المجتمع منظوراً إليه من جهة القِيَم التي يدعو إليها، والتي تُؤهِّله لأنْ يُبلِّغها إلى الأُمم الأُخرى؛

سعياً وراء الارتقاء بالإنسان." وما يمارسه الأفراد في الأُمَّة، وما تمارسه الأُمَّة مع غيرها يكون على أساس "العمل التعارفي"؛ أيْ عمل المعروف؛ إذ حقيقة التعارف هو أنَّه التعاون على المعروف، وترْك التعاون على المنكر (طه عبد الرحمن، 2005، ص20-21).

فالقِيَم هي التي تجمع الأُمَّة، والـمجتمع الواحد (أو القوم الواحد أو القُطْر الواحد) قد يكون فيه عدد من الأُمم المختلفة في التزاماتها القِيَمية.

## ثالثاً: القِيَم في سُنَن قيام الأُمم

### 1. السُّنَن والقِيَم والـمُقوِّمات

انتهى بنا الحديث عن السُّنَن إلى أنَّـها قوانين جعلها الله تعالى في صفات مخلوقاته وفي سلوكها، سواء كانت هذه الـمخلوقات من الأشياء والأحياء وما ينتابها من ظواهر وأحداث وتغيُّرات أو من الأقوام والأُمم البشرية وما تقوم به من أفعال، ومن نتائج هذه الأفعال. وقد بيَّن الله سبحانه بعض هذه السُّنَن بياناً صريحاً، فقال في كتابه العزيز: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 23]. ثـمَّ أكثر الله سبحانه من الدعوة إلى اكتشاف بعض هذه السُّنَن بالسَّيْر والنظر، وبالتعقُّل والتفكُّر، فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:11].

ويُمكِننا استثمار التعبير عن السُّنَّة بالقانون، كما وجدنا ذلك عند أمثلة من العلماء، لا سيَّما فخر الدين الرازي، ومحمد عبده، وابن عاشور، وعبد الكريم زيدان، مع ضرورة التمييز بين القانون الطبيعي الذي وضعه الله سبحانه في الـمخلوقات (سواء في الأشياء المادِّية في الكون الطبيعي والحيوي أو في العلاقات والسلوكات والتغيُّرات في حياة الأفراد والأُمم في الجنس البشري) والقانون الوضعي الذي وضعه الناس، لتنظيم شؤون حياتـهم في الـمجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. وهنا لا بُدَّ من ملاحظة أنَّ الأصل هو التساوق وعدم التناقض بين القانون الوضعي والقانون الطبيعي. وهذا الاستثمار يُـحتِّم السعي الـمتواصل لفهم ما بيَّنه الله

سبحانه من السُّنَن (القوانين الطبيعية)، والسعي لاكتشاف ما دعا الله تعالىٰ الإنسان إلىٰ اكتشافه من هذه القوانين، وجعلها علىٰ اتِّساق وانسجام مع القوانين الوضعية.

وقد انتهىٰ بنا الحديث عن الأُمَّة إلىٰ أنَّ سُنَّة الله تعالىٰ في التجمُّع البشري أنْ تتكوَّن القبائل والشعوب والأقوام والأُمم، وأنَّ الأُمَّة في التصوُّر الإسلامي هي الأصل في المسؤولية عن قيامها وبقائها، وأنَّ سُنَّة الله تعالىٰ في الأُمم أنْ تُفرِز الأُمَّة مَنْ يَؤُمُّها ويحكمُها وَفق عقود ومبادئ وتشريعات.

أمّا الحديث عن سُنَن قيام الأُمم فيَلزمه أنْ نتذكَّر طبيعة العلاقة بين مفهوم "السُّنَّة" ومفهوم "القيام". وأصل "القيام" من "قَوَمَ". وقد جاءت مشتقات هذا الأصل في القرآن الكريم مئات المَرّات بمعانٍ مختلفة، منها: القَوْم، والقيامة، والقِيام، والقَوام، والقَيِّم، والقَيِّمة، والمستقيم. وقد تحدَّثْنا عن الآيات القرآنية التي وردت فيها المعاني المختلفة، وعن تصنيف دلالاتها ومعانيها ضمن عدد من الفئات، في سياق البحث في موضوع القِيَم، في عدد من البحوث السابقة (ملكاوي، 2012، ص225–237؛ وملكاوي، 2016؛ وملكاوي، 2020).

وثـمَّة علاقة وطيدة بين القِيَم والـمُثُل والأخلاق والفضائل، وغلب استعمال مصطلح "الأخلاق" بمعنىٰ القِيَم الفاضلة، ولكنَّ ما ورد من الأحاديث النبوية عن فضائل الأخلاق ومكارمها يُؤكِّد أنَّـها صفات وخصائص إنسانية بالطبع والفطرة، جعلها الله تعالىٰ في نفوس الناس، وجاءت الأديان لتعزيزها وتهذيبها وتوجيهها. وقد جاء الثناء علىٰ خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم بالتنويه بعظيم خُلُقه. قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4]. وجاء في الحديث الشريف ما يُعبِّر عن مكانة مكارم الأخلاق في رسالة الإسلام بصيغة الحصر: (إنَّـما بُعِثْتُ لأُتـمِّم مكارم الأخلاق)[16] وعندما كلَّمَتْ سفّانة بنت حاتم الطائي، وهي أسيرة، النبيَّ ﷺ، فذكرت

[16] حديث: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ." رواه البيهقي في: **السُّنَن الكبرىٰ** (ج10، ص191)، والبزار في: **مسنده كشف الأستار**، حديث رقم 2740، والبغوي في: **شرح السُّنَّة**، حديث رقم 3622، وغيرهم، بهذا اللفظ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" (ابن حنبل، 2001، ج14، حديث رقم8952، ص513). وأخرجه البخاري في: **الأدب المفرد**، حديث رقم 273. وابن

من أخلاق أبيها، قدَّر عليه الصلاة والسلام تلك الأخلاق، ومَنَّ على سفّانة، وأكرمها، وكان ممّا قاله عنها: "خلّوا عنها، فإنَّ أباها كان يُحِبُّ مكارم الأخلاق."[17] وكان لهذا الموقف من النبيِّ ﷺ أثرُه حين ذكرَتْ ذلك لأخيها عدي، وأقنعته بأنْ يذهب إلى رسول الله ﷺ في المدينة مُسلِماً.

وإذا لزم التمييز بين القِيَم والأخلاق في سياقات الاستعمال، فيكفي أنْ نقول: إنَّ القِيَم هي المعايير التي تحكم السلوك، والأخلاق هي السلوك نفسه.

ومع أنَّ سلوك الفرد في نفسه وفي مجتمعه تحكمه قِيَم مُعيَّنة، مثل: الصدق، والوفاء، والإيثار، والحياء، والتواضع ... فإنَّ هذه المعاني تحمل صفات يشترك فيها أفراد المجتمع. ومن ثَـمَّ، فإنَّ المُهِمَّ في الحديث عن القِيَم هو هذه الصفة الجمعية التي يتوافق عليها الأفراد في المجتمع، وتضبط العلاقات التي يُفترَض وجودها فيه.

وقد نجد تأصيل مفهوم "القِيَم" ومفهوم "الأخلاق" بمرجعية دينية، فيقال: "القِيَم الإسلامية"، و"القِيَم المسيحية"، و"القِيَم البوذية"، لكنَّ هذا المفهوم يجد مرجعية قومية ووطنية كذلك؛ فكل المجتمعات والأُمم تصوغ لنفسها قِيَماً تعتمدها، وتفتخر بها، ورُبَّما تَدَّعي كل أُمَّة فضلَها وتميُّزها -بهذه القِيَم- عن غيرها من الأُمم. لذلك شاعت عبارات، مثل: القِيَم الأمريكية، والقِيَم الألمانية، والقِيَم الصينية، وغيرها. ونحن نجدها على مستوى الكيانات الإقليمية مثل "القِيَم الأوروبية"، وحتى الكيانات الدولية، مثل مؤسسات الأُمم المتحدة التي تتحدَّث عن "قِيَم إنسانية"، و"قِيَم

أبي الدنيا في: **مكارم الأخلاق**، حديث رقم 13. والحاكم في: **المستدرك**، ج2، حديث رقم 4221، ص670، وغيرهم بلفظ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ."

[17] روى ابن عساكر في: **تاريخ دمشق** خبر مَقْدَم ابنة حاتم الطائي في الأسرى، فقالت: "يا محمد، إنْ رأيْتَ أنْ تُخلِّي عنّي، ولا تُشمِت بي أحياء العرب؛ فإنّي بنت سيِّد قومي، وإنَّ أبي كان يحمي الذِّمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردَّ طالب حاجة قطُّ، أنا ابنة حاتم الطائي. فقال صلّى الله عليه وسلَّم: يا جارية، هذه صفة المؤمنين حقّاً، لو كان أبوك مُسلِماً لترحَّمْنا عليه، خلّوا عنها، فإنَّ أباها كان يُحِبُّ مكارم الأخلاق، والله يُحِبُّ مكارم الأخلاق." وعند ابن كثير في: **البداية والنهاية** عددٌ من الروايات، وفي بعض هذه الروايات من التفاصيل في السند والمتن ما لا يصمد للقبول عند المُحدِّثين دون أنْ يُشكِّك ذلك في قيمة مكارم الأخلاق.

عالمية". وكل ذلك يُؤكِّد مركزية القِيَم في الوجود البشري؛ فخصوصية أيِّ مجتمع أو أيَّة أُمَّة تتجلّى في ما تعتمده أو تَتَّصِف به من قِيَم على المستوى الفردي، وعلى مستوى المجتمع والأُمَّة، سواء كان ذلك في "القيمة" التي تحملها هذه القِيَم في ذاتها أو في ما تُحقِّقه من مصالح عاجلة أو منافع آجلة.

ومع أنَّ في الإنسان (فرداً، وأُمَّةً) ميولاً إلى التمايز بالطمع والكسب والتملُّك والأَثَرة، فإنَّ فيه (فرداً، وأُمَّةً) كذلك حرصاً ظاهراً وخَفِيّاً على الشعور بالسعادة الغامرة عندما يميل إلى العطاء والبذل والإيثار. وقد تمرُّ بالإنسان (فرداً، وأُمَّةً) حالات تستدعي نوعاً من السلوك يُعبِّر عن مخزونه من قِيَم مُعيَّنة. لذا، فإنَّ بعض القِيَم تتجلّى عند الحاجة إليها، وتكشف هذه الحاجة عن حضور القِيَم أو غيابها، كما ظهر ذلك واضحاً في ظروف جائحة كورونا التي مَرَّت بمجتمعات العالَم منذ مطلع عام 2020م.

ومع ذلك، فلا بُدَّ أنْ نُقرِّر أنَّ مفهوم "القِيَم" و"الأخلاق" و"المُثُل" و"الفضائل" -كما قرَّرها الإسلام- هي قِيَم إنسانية عالمية، يصعب على عقلاء البشر الشكُّ في صلاحيتها للوجود البشري. وقد أوضح المودودي كيف أنَّ الأخلاق الإسلامية هي -بالضرورة- أخلاق إنسانية، بحُكْم أنَّها خصائص للطبيعة البشرية التي خَلَقَها الله في أحسن تقويم، ولكنَّ الإسلام يُوسِّع دائرتها إلى ما بعد حدود الشعور النفسي، وتحقيق المصالح (الفردية، والجماعية) العاجلة في الدنيا، لتشمل القريب والبعيد على مستوى الوجود البشري والكوني، ويصل بها إلى نتائجها في ثواب الآخرة (المودودي، 1980، ص25-28).

وما يهمُّنا في سياق الحديث عن سُنَن قيام الأُمم هو ربط هذا القيام بالقِيَم والمُقوِّمات. فقيام الشيء لا بُدَّ له من مُقوِّمات، والمُقوِّمات في حالة الأشياء المادِّية أركانٌ وأعمدة وقواعد لا يستقرُّ كيان الشيء دون وجودها وتوازنها. قال الأفوه الأودي:

وَالْبَيْتُ لا يُبْتَنى إِلّا لَهُ عُمُدٌ وَلا عِمادَ إِذا لَمْ تُرْسَ أَوْتادُ

والـمُقوِّمات في حالة الكيانات الاجتماعية شروطٌ ومواصفات وقوانين ومؤسسات، فهي من ثَـمَّ سُنَن الله تعالىٰ في الاجتماع البشري. غير أنَّ الرابط بين مُقوِّمات الكيان الاجتماعي هو القِيَم التي تضبط هذه الشروط والقوانين والمؤسسات، وتحكم علاقات الناس في داخل الـمجتمع، وعلاقة الـمجتمع بالمجتمعات الأُخرىٰ. وتأخذ القِيَم معناها من كونها معايير وضوابط لسلوك الأفراد في الـمجتمع، وتَتَّصِف هذه القِيَم بقَدْرٍ من الثبات والاستقرار في بُعْدها النظري، وبشيءٍ من الـمرونة والنسبية في بُعْدها التطبيقي العملي. وبوجه عام، تُصنَّف القِيَم وَفق أُسس مختلفة، مثل: الـمحتوىٰ، والمقصد، والوضوح، والشِّدَّة، وغير ذلك.

ونحن نُفضِّل أنْ يكون منهجنا في الحديث عن القِيَم والـمُقوِّمات مُستمَدّاً من فهمنا لِما ورد في القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية -بطبيعة الحال-، بوصفها بياناً للقرآن الكريم. فجذر "القِيَم"، وهو "قَوَمَ"، ورد في القرآن الكريم، ووردت مشتقاته في القرآن الكريم ستمئة وتسع وخمسين مَرَّةً، منها: قام، وأقام، وقيام، وقائم، وقَيّوم، وقِيَم، وقَيِّم، وقَوَام، وتقويم، ومستقيم، وقيامة، وقَوْم. وجِماع الـمعاني اللغوية في أصولها القرآنية تشير إلىٰ أنَّ الكون كلَّه قائم علىٰ نظام تتقوَّم به أشياؤه وظواهره، وأنَّ حياة الإنسان في الكون تتقوَّم بمنظومة من القِيَم تُحدِّد تصوُّراته وعلاقاته وأعمالَه الظاهرة والباطنة. فكما أنَّ رؤية العالَـم عند الـمُسلِم تتضمَّن نظاماً في الاعتقاد يُنشِئ تصوُّرات الإنسان وعباداته، ونظاماً في الـمعرفة يُنشِئ التشريعات والعلاقات، فكذلك تتضمَّن هذه الرؤية نظاماً للقِيَم تتحدَّد به دوافع السلوك والعمل (ملكاوي، 2008، ص5-22).

وتأصيل سُنَن الله الكونية في قيّوميته التي تتجلّىٰ في كل ما خَلَق الله سبحانه؛ فالنظام الذي تقوم به هذه الـمخلوقات هو آيات النظر والتعقُّل والتفكُّر، ومن هذه الآيات -مثلاً- قيامُ السماوات والأرض بأمره سبحانه. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: 25]؛ أيْ تثبت، وتستقرُّ في وجودها وحركاتها وتغيُّراتها وَفق النظام الكوني. فمعنىٰ "القيام" هنا هو البقاء الكامل ... الـمُعبَّر عنه في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر: 41] ... والأمر الـمضاف إلىٰ الله تعالىٰ هو أمره التكويني؛ وهو مجموع ما وضعه الله تعالىٰ من نظام العالَـم العلوي والسفلي،

ذلك النظام الحارس لها من تطرُّق الاختلال، بإيجاد ذلك النظام. ولفظ "بأمره" مُتعلِّق بفعل "تقوم"، والباء للسببية (ابن عاشور، 1984، ج21، ص80). والقيام يتمُّ بمُقوِّمات، ومُقوِّمات الشيء وقِوامه؛ أي ما يتكوَّن به كيان ذلك الشيء، فتعطيه خصائصه التي تُميِّزه عن غيره من الأشياء. لذا، فإنَّها تتصف بقَدْر كبير من الثبات والاستقرار والدوام.

إنَّ مُقوِّم الشيء عنصر أساسي لا بُدَّ منه لوجود الشيء كاملاً وتامّاً، وقد أوضح ابن عاشور كيف أنَّ السُّنَّة التي شرعها الله تعالى في بعض العلاقات الاجتماعية تقتضي الوجود الكامل والتامَّ لهذه العلاقة، وذلك في حديثه عمّا شرعه الله تعالى في أمر الشهادة على الوصية، بتفاصيل دقيقة تستهدف أنْ تقوم الشهادة على وجهها. فالسُّنَّة التي أرادها الله سبحانه في هذا التشريع هدفُها أنْ تأتي الشهادة على وجهها؛ "أيْ على سُنَّتها، وما هو مُقوِّم تمامها وكمالها" (ابن عاشور، 1984، ج7، ص93). وقد استعمل ابن عاشور هنا لفظ "السُّنَّة"؛ أي الطريقة التي شرعها الله سبحانه في تفاصيل أداء شهادة الشاهدين. ولهذه الشهادة مُقوِّمات، ومجيئها على السُّنَّة أو الطريقة التي شرعها الله سبحانه واحدٌ من مُقوِّمات تمام الشهادة وكمالها.

وتصوُّرنا البشري الذي تهدي إليه آيات القرآن الكريم يقوم على مُقوِّمات، أهمُّها الإيمان بالغيب، ويتضمَّن ذلك وجود الله سبحانه ووحدانيته وقيّوميته، لكنَّنا مهما عدَّدْنا من هذه المُقوِّمات، فإنَّ أيّاً منها مُنفرِداً لا يقوم وحده، وإنَّما يؤدّي مهمته عندما يكون إلى جانبه غيره من المُقوِّمات، وإلّا فإنَّ الكيان لا يكون كياناً سليماً يَتَّصِف بالتكامل والتوازن والاستقرار، مثلما أنَّ أيَّ عمود من أعمدة البناء لا يقوم بالبناء وحده، وإنَّما يقوم بمهمته مع الأعمدة الأُخرى.

والإيمان بالغيب هو أوَّل مُقوِّم من مُقوِّمات إيمان عباد الله الذين يَتَّصِفون بالتقوى، ولذلك جاء في مطلع آيات سورة البقرة من صفات المؤمنين المُتَّقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3]. أمّا الصفات والخصائص والمُقوِّمات الأُخرى فتأتي بعد ذلك.

فسُنَّة الله سبحانه أنْ تقوم أمور العالَم الطبيعية والاجتماعية على أساس مُقوِّماتٍ، وكل مُقوِّم منها هو قيمة في حَدِّ ذاته؛ لِما له من فضل ومكانة وقيمة في أنَّه الضابط والمعيار في الوجود

والسلوك. وهذه القِيَم كثيرة، ولها تفاصيل وأمثلة وشواهد، ولكنّنا سنحاول تحديد ما يُمكِن أنْ تكون قِيَماً عُليا حاكمة، تتفرَّع من كلٍّ منها مجموعةٌ من القِيَم الفرعية.

ونحن نرىٰ أنَّ ارتباط السُّنَن والقِيَم والـمُقوِّمات هو ارتباط وجودي في طبائع ما خَلَق الله سبحانه، ولكنَّ الإنسان هو الـمُستهدَف في إدراك هذا الارتباط وفهمه وتوظيفه. فالله سبحانه خَلَق الإنسان، وزوَّده بمبادئ العِلْم والمعرفة التي يحتاج إليها في حياته، وبالضوابط التي تَلزمه في سلوكه وتعامله مع الوجود الكوني والبشري، وبِـمَلَكة التطلُّع إلىٰ مزيد من العِلْم والمعرفة بكسبه واجتهاده، وكانت النتيجة أنَّ هذا الإنسان قد اهتدىٰ وضلَّ، وعَلِم وجَهِل، وأصاب وأخطأ. وقد تفضَّل الله تعالىٰ علىٰ الإنسان في مسيرة حياته بإرسال الرُّسُل والأنبياء لهدايته، وكانت كل هذه الرسالات تُقدِّم له معرفة يقينية حاسمة في مسألة "الوجود"، وهي الـمسألة التي تشعَّب فيها تفكير الإنسان في مجالات الدين والفلسفة والعِلْم.

وخُتِم الهدي الإلهي برسالة محمد ﷺ، ومعه كتاب مقروء محفوظ، فيه خبر السابقين، والحُكْم ما بين الحاضرين واللاحقين، في الأمور الخاصّة والعامّة، والمسائل الجزئية والقضايا الكلية. وفيه بيان صريح واضح عن القضية الكبرىٰ التي كان دين الله يتناولها في كل الرسالات، وهي الرؤية الكلية التي تجمع مفاهيم الدين الكبرىٰ ومقاصده الأساسية في حياة البشر؛ إذ تُقدِّم هذه الرؤية للإنسان منظومة من الوعي والإدراك عن الحقيقة الكبرىٰ في الوجود، وهي أنَّ ثـمَّة وجودين: وجود الله سبحانه، وهو واحد خالق مُدبِّر، ووجود الـمخلوقات، وهي كلّ ما عدا الخالق. ويتميَّز من بين هذه الـمخلوقات وجودُ الإنسان الـمُستخلَف، في كلّ ما عداه منها.

وهكذا يتبيَّن لنا أنَّ الرؤية الإسلامية الكلية للعالَـم هي رؤيةٌ لله الخالق الواحد سبحانه، ورؤيةٌ للكون الـمخلوق، ورؤيةٌ للإنسان الـمُستخلَف. وخطاب هذه الرؤية مُوجَّه إلىٰ هذا الإنسان؛ ليُدرِك وجود الخالق، ووجود نفسه، ووجود الـمخلوقات التي يصل عِلْمه إليها، بالدليل النقلي أو الدليل الحِسّي، وعقل الإنسان أداة في كلا الدليلين. فالإنسان خليفة في كل ما عداه من

الـمخلوقات؛ فهو مُـمكَّن فيها، وهي مُسخَّرة له. ووظيفة الإنسان في الحياة هي حمل الأمانة، وأداء العبادة، وتحقيق الخلافة والعمران.

وبهذا الفهم نستطيع أنْ نُـميِّز بين ثلاثة مُقوِّمات في رؤية العالَـم هذه، وكل مُقوِّم منها يُعَدُّ قيمةً في حَدِّ ذاته، وقيمةً في ما يَتَّصِل بالـمُقوِّمَيْنِ الآخرينِ، وفي قيام الحياة البشرية وتقييمها وتقويمها. وهذه الـمُقوِّمات الثلاثة هي: توحيد الله سبحانه، وتزكية الإنسان الـمُستخلَف، وعمران الأرض. فالتوحيد والتزكية والعمران هي الـمُقوِّمات الثلاثة لدين الله سبحانه، وهي قِيَمٌ تضبط وَعْيَ الإنسان وسعْيَه، وهي مقاصد الدين الأساسية. وتنبثق عن هذه الـمُقوِّمات الثلاثة، وتتفرَّع منها، سائرُ الـمُقوِّمات والقِيَم والمقاصد التي تشمل تفاصيل الوجود الإنساني في حياة الفرد، وفي نتائج سعيه في هذه الحياة. وقد سبق أنِ اجتهدْنا في بيان الصلة بين القِيَم والمقاصد في منظومة القِيَم العُليا (ملكاوي، 2019)،[18] ونجتهد الآن في بيان الصلة بين عناصر هذه الـمنظومة وسُنَن الله سبحانه في قيام الأُمم.

## 2. موقع منظومة القِيَم العُليا في بناء الأُمم

سُنَّة الله سبحانه في قيام الأُمم أنْ يتوافر للأُمَّة عدد من مُقوِّمات الوجود والاستمرار والبقاء. ولكل مُقوِّم من هذه الـمُقوِّمات قيمته ومهمته؛ فوجوده معيار للوجود، وغيابه يُضعِف الكيان الـموجود، أو يُسهِم في محوه من الوجود. وهذه سُنَّة الله تعالىٰ في وجود كل الأُمم.

وسنختار أنْ نتحدَّث عن ثلاثة مُقوِّمات تُعَدُّ الأركان الأساسية للوجود والبقاء، وهي: وحدة الأُمَّة، والخصائص النفسية والاجتماعية بين أفرادها وجماعاتها، ونوعية النُّظُم والتشريعات التي تحكمها. وعندما نتحدَّث عن الأُمَّة الإسلامية تحديداً، فإنَّ هذه الـمُقوِّمات الثلاثة هي:

- وحدة الأُمَّة في وجودها ومرجعيتها وخصائصها. والأُمَّة الإسلامية تقوم وتتقوَّم أوَّلاً بعقيدة التوحيد وتـمثُّلاتـها في فكر الأُمَّة وحياتـها.

[18] عرضنا تفاصيل الصلة بين القِيَم والمقاصد في منظومة القِيَم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، وتجلِّيات هذه القِيَم الثلاث في العمل التربوي.

- قوَّة الخصائص الـمُميِّزة للأمَّة، وتتمثَّل في حالة الفرد الـمُسلِم والمجتمع الـمُسلِم، فنجد أنَّ هذه الخصائص تقوم وتتقوَّم بالتزكية للنفس، والمشاعر، والعلاقات، والممتلكات.

- نوعية النُّظُم والتشريعات التي تحكم حياة الأُمَّة، وما تؤدّي إليه هذه النُّظُم والتشريعات من إنجازات البناء والعمران في الـمجالات المادِّية والمعنوية.

ونختصر القول في هذه الـمُقوِّمات بقِيَم ثلاث، هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، في صورة منظومة مُتكامِلة، لا يُغْني واحدٌ منها عن غيره، وهي تعمل معاً بصورة دائمة، ولكنَّها ليست مُتكافِئة؛ فالتوحيد أعلاها، والقيمتان الأُخريان تستندان إليه. ونصطلح على تسميتها: منظومة القِيَم العُليا؛ فليس ثمَّة ما هو أعلى منها في القيمة والأهمية، فهي التي تعطي لأمَّةٍ وجودَها وخصائصها وحضورها وإنجازاتها.

ومن ثَمَّ، فإنَّ واقع الأُمَّة الإسلامية ومدى اتِّصافها بالصفة الإسلامية، إنَّما يُقاس بحضور هذه القِيَم وتجلِّياتها. وأيُّ قصور في هذا الحضور أو خلل في ظهور هذه التجلِّيات، يعني الحاجة إلى إصلاح البناء أو إعادة البناء من جديد؛ ذلك أنَّ سُنَّة الله تعالى في قيام الأُمَّة وبقائها هي وحدتُـها، وتفرُّقها يعني فشلها وذهاب ريـحها. وسُنَّة الله في تـماسك الأُمَّة هي عمق مشاعر الودِّ والرحمة، وعلاقات التكامل والتكافل بين أفرادها، وغياب هذه الـمشاعر والعلاقات نذير الفشل في بناء الأُمَّة. وسُنَّة الله تعالى في اجتماع كلمة الأُمَّة على نُظُم الإدارة والحُكْم التي تضمن استثمار طاقات أفرادها وجماعاتها في امتلاك عناصر القوَّة، وتواصل خُطَط التنمية والتطوير والتقدُّم، ولا سبيل إلى ذلك إلّا بضمان الحرية وإقامة العدل؛ فالظلم والاستبداد مُؤذِن بخراب العمران المادي والمعنوي.

### أ. التوحيد الـمُقوِّم الأوَّل في قيام الأُمم

إنَّ مصطلح "قيام الأُمم" في السياق الذي نتحدَّث عنه يعني وجود الأُمَّة في حالة من الوجود الـمستقل والقوي والفاعل والقائم على تحقيق مراد الله سبحانه في توفير "الـمُقوِّمات" الـمادِّية والمعنوية للحياة الكريمة للناس، وعمران الأرض، والقيام على توظيف طاقاتها الـمُسخَّرة في جلب الـمصالح ودرء الـمفاسد.

ويعني الوجود الـمستقل للأُمَّة أنْ تكون كل شؤونـها بيدها لا بيد غيرها؛ سياسةً، واقتصاداً، وعِلْماً، وتعليماً، ويكون ما يَلزم من علاقاتها بغيرها محكوماً بقرارها في تبادل الـمنافع والمصالح، وأنْ تكون حاجة غيرها إليها هي أساس العلاقة، وحاجتها إلى غيرها في استكمال ما يكون لديها من نقص، وتقديم ما عندها من خير. ومن ثَـمَّ يكون استقلال الأُمَّة تعبيراً عن قوَّتها وكرامتها وهيبتها بين الأُمم، وفاعليتها في توظيف الإمكانيات والموارد، وخصائصها في البناء القِيَمي والأخلاقي.

وإذا لم تكن الأُمَّة في مثل هذه الحالة من القيام الـمستقل في القوَّة المادِّية والأخلاقية، بل يتحدَّد أمرها ومواقفها وشؤونها من خارجها، ويكون وجودها مُعتمِداً على الوجود الـمادي والمعنوي لغيرها؛ فإنَّ هذه الأُمَّة لا قيمة لوجودها، وهي تفتقد مُقوِّمات بقائها، وليست في حالة قيام يمتنع عن السقوط، وإنَّما هي في حالة قعود عن اكتساب مُقوِّمات القوَّة والـمَنَعة، وتخلُّف عن مقام العِزَّة والكرامة. وقد جعلت أساليب البيان العربي أشدَّ صيغ الهجاء للإنسان الذي لا يعمل على توفير طعامه وكسائه، فيكون قاعداً عن الـمكارم.[19]

وإذا كان قيام الأُمم، إنَّـما يكون وَفق السُّنَن التي جعلها الله تعالى لهذا القيام، كما هو الحال في قيام كل أمر من أمور الوجود، فإنَّ هذه السُّنَن تُعبِّر عن وجود "الـمُقوِّمات" اللازمة لكل "قيام" مادي أو معنوي. ومن سُنَّة الله تعالى في قيام أيّةِ أُمَّة أنْ تَتَّصِف بوحدة الكيان وترابطه وتماسكه، بما يتوافر من حرص كل مُكوِّن من مُكوِّنات الكيان؛ أفراداً، وجماعاتٍ، على رعاية الـمصالح العُليا لهذا الكيان؛ فأُمَّة الـمؤمنين تكون علاقة أفرادها في بناء الأُمَّة بوصفها عناصر البناء "الواحد" يشدُّ بعضه بعضاً،[20] فتتماسك بِنيته، ويظهر استقراره وقوَّته، ومثَلُهم في الـمشاعر الـمُتبادَلة بينهم مثلُ الجسد

---

[19] إشارة إلى بيت شعر قاله الحُطَيْئة في هجاء الزبرقان بن بدر، وهو:

دع الـمكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنَّك أنت الطاعم الكاسي

ومن شِدَّة تأثُّر الزبرقان بقسوة هذا الهجاء، ذهب إلى عمر بن الخطاب يشكو الحطيئة، قائلاً: أو ما تبلغ مروءتي إلّا أنْ آكل وألبس؟! قال عمر: عليَّ بحسّان، فجيء به ليحكم، فقال: "لم يهجُه، ولكنْ سلح عليه" (أيْ تغوَّط، كناية عن شِدَّة الهجاء).

[20] "الـمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، وشبك بين أصابعه" (البخاري، 1998، كتاب: الـمظالم والغصب، باب: نصر الـمظلوم، حديث رقم2446، ص461).

"الواحد"، في ترابط أعضائه، وقيام كلٍّ منها بوظيفته، وأيُّ خلل في أيِّ عضو ينعكس على الأعضاء كلها.[21] وصفة الإيمان بين أفراد الأُمَّة المؤمنة توجِب علاقة الأُخوَّة التي تستدرك أيَّ خلل، وتُصلِح أيَّة خصومة. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: 10].

إذن، قيمة التوحيد تُعبِّر عن سُنَّة الله سبحانه في وجود الأُمَّة وقوَّتها وكرامتها. ولا عجب في ذلك في التفكير الإسلامي؛ إذ التوحيد هو الـمُقوِّم الأوَّل في كل ما يَتَّصِل بالإسلام، فهو الـمُقوِّم الأوَّل للعقيدة، والـمُقوِّم الأوَّل للنظام العام في وجود الأُمَّة معرفياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، والـمُقوِّم الأوَّل للنفس الإنسانية في إيمانها وسلوكها وأخلاقها ومشاعرها.

فقيام الأُمَّة واستمرارها يخضع لسُنَّة الله سبحانه التي تتجلّى في شرط وجودها مُجتمِعة معاً على توحيد الله ومنهاجه وسُنَنه. والذين يتفرَّقون شِيَعاً، فإنَّ سُنَّة الله ألّا يكون الرسول ﷺ منهم في شيء. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: 159]. وسُنَّة الله في حياة الأُمَّة أنَّ التفرُّق والتنازع يتناقضان مع طاعة الله ورسوله، ويكون مصيرهما الفشل وذهاب القوَّة والهيبة. قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: 46]. قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "التنازع من شأنه أنْ يَنْشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مُرتكِز في الفطرة ... والفشل: انحطاط القوَّة ... تمثيلاً لحال الـمُتقاعِس عن القتال بحال مَنْ خارت قوَّته، وفشلت أعضاؤه، في انعدام إقدامه على العمل ... فيصرف الأُمَّة عن التوجُّه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكَّن منهم العدوُّ، .... والمعنى: وتزول قوَّتكم ونفوذ أمركم، وذلك لأنَّ التنازع يُفْضي إلى التفرُّق، وهو يوهِن أمر الأُمَّة" (ابن عاشور، 1984، ج10، ص31-32). أمّا في الآخرة، فإنَّ سُنَّة الله سبحانه في الذين يتفرَّقون ويختلفون في أمر

21 "مَثَلُ الـمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" (مسلم، 1998، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم الـمؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم2586، ص1041).

دينهم بعد أنْ جاءتهم البيِّنات أنْ ينتهي أمرهم إلىٰ عذاب عظيم. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 105].

ولا شكَّ في أنَّ الأُمَّة الواحدة يكون فيها بين أفرادها وجماعاتها من الـمودَّة والرحمة والأُلفة والوفاء ما يُقوّي عزائمهم، ويقف فيها كلُّ فرد علىٰ ثَغرة من الـمسؤولية والرعاية، ويصبح كلُّ فرد فيها بمنـزلة الراعي لشؤون الأُمَّة جميعها، لا سيَّما أنَّ مفهوم "الرعاية" لا يختصُّ بفرد دون آخر؛ فكلُّ فرد في الأُمَّة راعٍ، فالرجل والمرأة مسؤولان عن الأُسرة، وكلٌّ منهما قد يكون له مهمة خارج الأُسرة؛ رئيساً أو مَلِكاً أو وزيراً أو مديراً أو مُزارِعاً أو صانعاً أو تاجراً أو معلماً... وكل راعٍ مسؤول عن رعيَّته.

وقيمة التوحيد في الرؤية الإسلامية لا تقتصر علىٰ الجانب الاعتقادي الذي يُعبِّر عن توحيد الله سبحانه في أُلوهيته وربوبيته وصفاته، وإنَّما يمتدُّ ليكون له تجلِّياته في حياة الـمؤمنين به في جميع مجالاتها. وقد اجتهد كثير من العلماء -في القديم والحديث- في الكشف عن هذه التجلِّيات، بل إنَّ التوحيد يُمثِّل قيمة عُليا لها تجلِّياتها في جميع الأنظمة التي تُعبِّر عن وجود الأُمَّة الواحدة:

في نظامها الـمعرفي؛ إذ يتجلّىٰ ذلك في الـمرجعية التوحيدية في مصادر الـمعرفة وأدوات اكتسابها وتوظيفها وَفق منهجية التكامل الـمعرفي.

وفي النظام الاجتماعي، بوحدة الـمرجعية في الحقيقة والقِيَم التي تُحقِّق السلام الاجتماعي، وتُوسِّع دائرته لوحدة الاجتماع البشري.

وفي النظام السياسي؛ إذ يتجلّىٰ التوحيد في وحدة الأُمَّة في نظامها، ورؤيتها للعالَـم، وتعاملها مع الوقائع، وتوفير الكرامة والحرية والتعاون والتكامل.

وفي الـمجال الاقتصادي؛ إذ تتجلّىٰ قيمة التوحيد في العلاقة الـمُتوازِنة بين الـمادي والروحي، وتكامل مبادئ الاقتصاد وأخلاقيات الإنتاج والاستهلاك.

وفي النظام الجمالي الذي تغيب فيه الفنون التشخيصية تعبيراً عن التوحيد الـمُطلَق، وابتداع تعبيرات لِما لا يُمكِن التعبير عنه، فتكون قمَّة الوعي بالجمال أنَّ الله الواحد يتعالىٰ علىٰ الـمِثْل والشبيه.

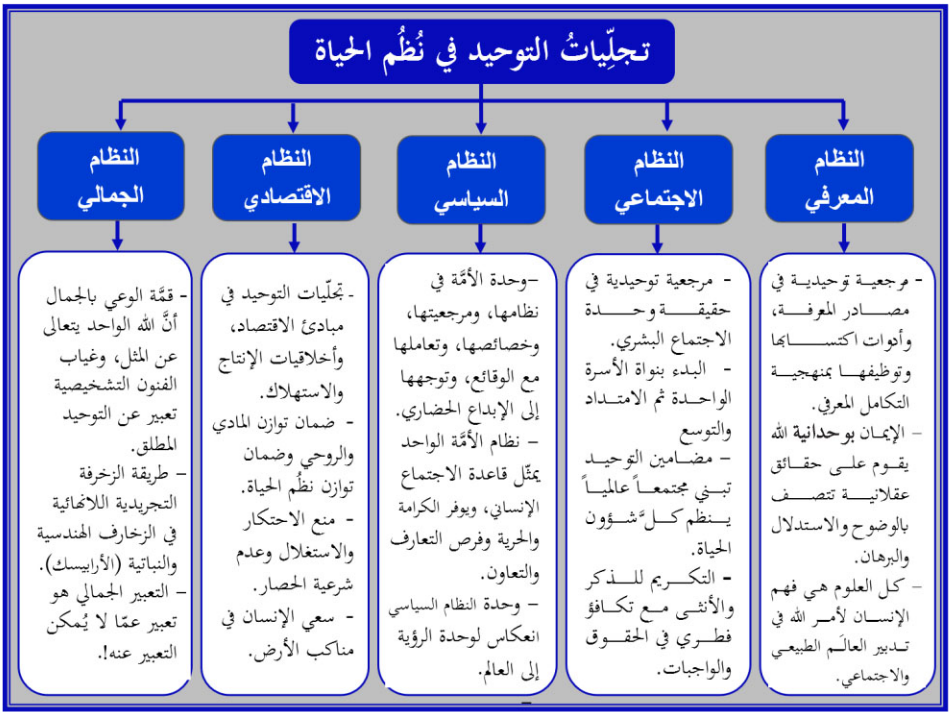


وقد وعى الصحابة هذا الجمع بين مجموعة الـمُقوِّمات التي تقوم بها الأُمَّة؛ لا سيَّما موقع التوحيد بين هذه الـمُقوِّمات؛ إذ يُروىٰ أنَّ عمر بن الخطاب ﵁ مَرَّ بمعاذ بن جبل ﵁، فقال: ما قِوام هذه الأُمَّة؟ قال معاذ: ثلاث، وهُنَّ الـمنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. والصلاة، وهي الـمِلَّة. والطاعة، وهي العصمة. فقال عمر: صدقت" (المتقي، 1985، كتاب: الـمواعظ والرقائق والخطب والحكم/ قسم الأفعال، ج16، ص231). وقد علَّق ابن عاشور علىٰ هذا الأثر، فقال: يريد معاذ بالإخلاص التوحيد، كقوله تعالىٰ: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: 5] (ابن عاشور، 1984، ج22، ص92).

### ب. التزكية الـمُقوِّم الثاني في قيام الأُمم

"التزكية" مصطلح ومفهوم قرآني مركزي، يَتَّخِذ موقعاً مُهِمّاً ضمن منظومة القِيَم القرآنية؛ فالتزكية موضوعها الإنسان الـمُستخلَف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني؛ إصلاح الفرد والجماعة والأُمَّة. والإنسان مادَّة وروح، والتزكية تشمل المادَّة والروح. وأيُّ حديث عن قضايا

الإصلاح لا معنى له إلّا إذا تعلّق بالإنسان، واستهدف ترقيته في مراتب التزكية، فهي ليست مسألة مشاعر وخلجات وخواطر نفسية مقصورة على مستوى الإصلاح الفردي، بل تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري. وسنرى لاحقاً كيف أنَّ التزكية هي هدف العمران ووسيلته.

ولا شكَّ في أنَّ التوحيد هو رأس الأمر في التفكير الإسلامي، وأساس البناء في الحضارة الإسلامية، لكنَّ قيمته -في حياة الإنسان- رُبَّما تبقى حبيسة التجريد الفكري والتصوُّر الغيبي إذا لم تنبثق عنه تزكية الإنسان في عقله وقلبه ومشاعره، وفي معاملاته وأنماط سلوكه. وهذه التزكية ليست زهداً يكتفي فيه الفرد الإنساني بأخذ الحَدِّ الأدنى من مُقوِّمات الحياة دون أنْ يضيف إلى الحياة شيئاً، وإنَّما هي تزكية استخلافية عمرانية، تتجلّى فيها حيوية ذلك الفرد وإسهامه الفاعل في تحقيق الاستخلاف البشري والعمران الحضاري. وهي تزكية للفرد؛ ليكون أساساً لتزكية الجماعة والأُمَّة، ثمَّ تكون هذه التزكية قيمة من القِيَم العُليا في وجود الأُمَّة وتماسكها وبقائها.

وقد جاءت ألفاظ التزكية في القرآن الكريم في خمسة مجالات، واحد منها هو التزكية المذمومة حين يُزكّي الإنسان نفسه بما ليس فيه من الخير، والله أعلم به، وأربعة منها محمودة. وأوَّل صور التزكية التي أعلى الله سبحانه من شأنـها هي التي يصطفي فيها سبحانه مَنْ يشاء مِنْ عباده، فيختصُّه بالتزكية، كما زكّى الله تعالى نبيَّه يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣﴾ [مريم: 12-13]، وكما زكّى الله تعالى نبيَّه عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: 19]. ولا شكَّ في أنَّ تزكية الأنبياء كانت بالاصطفاء الإلهي، لا بالتعلُّم والممارسة البشرية.

وثاني صور التزكية المحمودة هي التي يكتسب فيها الإنسان صفة التزكية بمجاهدة النفس الإنسانية وتطهيرها، وترقية المشاعر النفسية والعلاقات الاجتماعية، فيكون من ذلك فلاح الإنسان. وقد جاء أطول قسم في القرآن الكريم في سورة الشمس، على فلاح مَنْ يُزكّي نفسه، بكَفِّها عن نـزواتها: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: 9-10]. وظهرت هذه التزكية في احترام خصوصيات البيوت والمنازل بما هو أزكى للعلاقات الاجتماعية: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ

فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ [النور: 28]. وغضُّ بصر المؤمنين والمؤمنات وحفظ فروجهم سبيلٌ إلى تزكية النفس وتطهيرها من أسباب الفتنة، والوقوع في الفاحشة، وما قد ينتهي إليه عدم طاعة أمر الله سبحانه من فساد العلاقات الاجتماعية: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ [النور: 30]. والله سبحانه وتعالى يُذكِّر بضرورة تزكية العلاقات، وتطهير المشاعر، وتزكية العلاقات عندما تقع حالات الخلاف بين الزوجين، وتنتهي بالطلاق، فلا يكون الخلاف سبباً في إيقاع الظلم، وتقطيع الرحم: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة: 232].

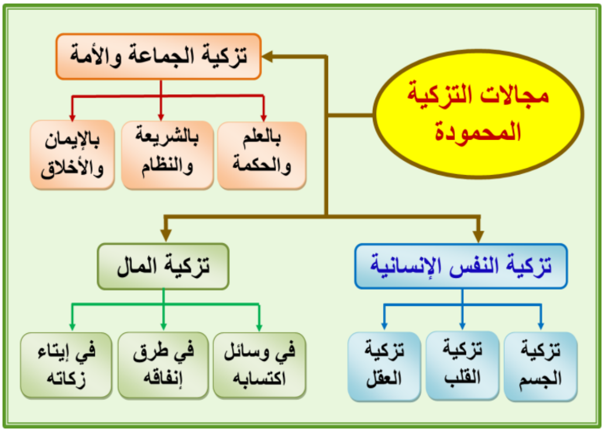


وثالث صور التزكية التي وردت في القرآن الكريم هي جعل التزكية واحدةً من أربع مهام للرسول ﷺ؛ فقد دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أنْ يبعث في ذُرِّيته نبيّاً يتلو عليهم آياته، ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويُزكّيهم: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]. وقد تفضَّل الله سبحانه، فاستجاب الدعاء، ومَنَّ الله تعالى على الأُمَّة بإرسال محمد ﷺ، وجعل مهمة التزكية في المرتبة الثانية بعد تلاوة الآيات، وقبل تعليم الكتاب، وتعليم الحكمة: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]، مع أنَّ التزكية في دعاء إبراهيم عليه السلام كانت المهمة الرابعة. ونُلاحِظ هنا أنَّ مهمة النبيِّ في التزكية هي تزكية جماعية للأُمَّة، وأنَّها لا تقتصر على التزكية الفردية التي انتشر مفهومها في بعض دوائر التصوُّف.

ورابع صور التزكية المحمودة هي تزكية المال بأشكاله المختلفة؛ في وسائل اكتسابه، وفي طرق إنفاقه، وفي إيتاء زكاته، فيكون في ذلك تزكية للنفس، وتطهير لها من الشُّحِّ، ومن ثَـمَّ الفلاح في الدنيا والآخرة. ولكنَّها كذلك تزكية لمجموع الأُمَّة في تكافلها وتعاون أفرادها على بناء الأُمَّة الـمُتراحِمة الـمُتكافِلة. وتزكية المال تعني كل صور الممتلكات التي تَدُرُّ منفعة؛ فهي في التجارة، والصناعة، والزراعة، وغير ذلك.

والتزكية لا تقتصر على دفع النسبة (أو النسب) المفروضة، وإنَّـما هي تزكية في وسائل اكتساب المال، وطرق إنفاقه كذلك. وإذا تأمَّلْنا في مصارف الزكاة الثمانية، فإنَّنا نجد أنَّ القيمة المقصدية هنا أنْ تسدَّ حاجة كل محتاج في الأُمَّة، ثمَّ يكون سهم "في سبيل الله" مفتوحاً لكل أبواب الخير، تترقّى فيه الأُمَّة في كلِّ وسيلة من وسائل العِلْم والقوَّة والتمكين.

وقد يتبادر إلى الذهن في مفهوم "التزكية" أنَّها تُعْنى بالجانب الفردي للإنسان في مشاعره القلبية، بما يُمثِّله ذلك من مشاعر الأُلفة والوفاء والمودَّة والرحمة، لكنَّا نجد القرآن الكريم يُؤكِّد أنَّ تزكية الفرد تـمتدُّ إلى تزكية الجسد والقلب والعقل؛ ليكون كل فرد لَبِنَةً في بناء كيان الأُمَّة. وقد أدّى النبيُّ ﷺ مهمته في تزكية الأُمَّة في هذه المجالات كلها، بصورة أصبحت تزكيته هي الأُسوة الصالحة في سبيل احتفاظ هذه الأُمَّة بمقام التزكية. أمّا المهام الثلاث الأُخرى للنبيِّ ﷺ فكانت: تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة. وهي تتكامل مع مهمة التزكية في توفير المنهج التربوي الصالح لجعل الأُمَّة خير أُمَّة أُخرِجت للناس. ونحن نرى أنَّ هذا المنهج التربوي للأُمَّة يتكامل في تحقيق تزكيتها عبر ثلاثة أنواع، هي: التزكية بالإيمان والأخلاق، والتزكية بالعِلْم والحكمة، والتزكية بالشريعة والنظام.

### ت. العمران الـمُقوِّم الثالث في كيان الأُمَّة

العمران في القرآن الكريم واحد من القِيَم المقاصدية العُليا في وجود الإنسان في هذه الحياة، لذلك جاء لفظ "العمران" بمجموعة من الدلالات، منها: عمران الحياة نفسها، وعمران المكان، وعمران الأُمَّة في اجتماعها البشري بنوعيه: المادي والمعنوي. فعمران الحياة للفرد بوجوده الحي،

وعمران الحياة للأُمَّة بقوَّتها وفاعليتها وحضارتها، وإذا لم يتوافر عمران الحياة هذا للفرد والأُمَّة فهو الموت والغياب والخراب. وجاء لفظ "العمران" منسوباً إلى المكان الذي قد يكون قريةً، أو مدينةً معمورةً بالناس، أو بيتاً مسكوناً بأهله، أو أرضاً مُستصلَحةً نافعةً. وجاء هذا اللفظ أيضاً بمعنى العمران المادي للمباني والطرق ووسائل النقل والتواصل، وعمران الأرض بالسعي في مناكبها؛ زراعةً، وصناعةً، وتجارةً، وتقانةً. فإذا لم يكن هذا العمران، وعُطِّلت الأرض عن الإنتاج، وكُفَّت أيدي الناس عن العمل، وسادت الفاقة، وانتشرت الأمراض؛ فهو الخراب الذي يتناقض مع مقصد العمران. أمّا العمران المعنوي فلا يقلُّ أهمية عن العمران المادي، وهو يتمثَّل في صور مُتعدِّدة من العِلْم والفكر والثقافة، وإنشاء المؤسسات، وسَنِّ القوانين، وتطوير نُظُم الإدارة والحُكْم، وبناء الحضارة. فإذا لم يتوافر هذا العمران، فإنَّ البديل هو الجهل والأُمِّيّة، وانتشار الفوضى والفساد، وعموم الظلم والاستبداد.

وفي الـمُخطَّط الآتي تمثيلٌ لأنواع العمران في حالات وجوده أو غيابه.

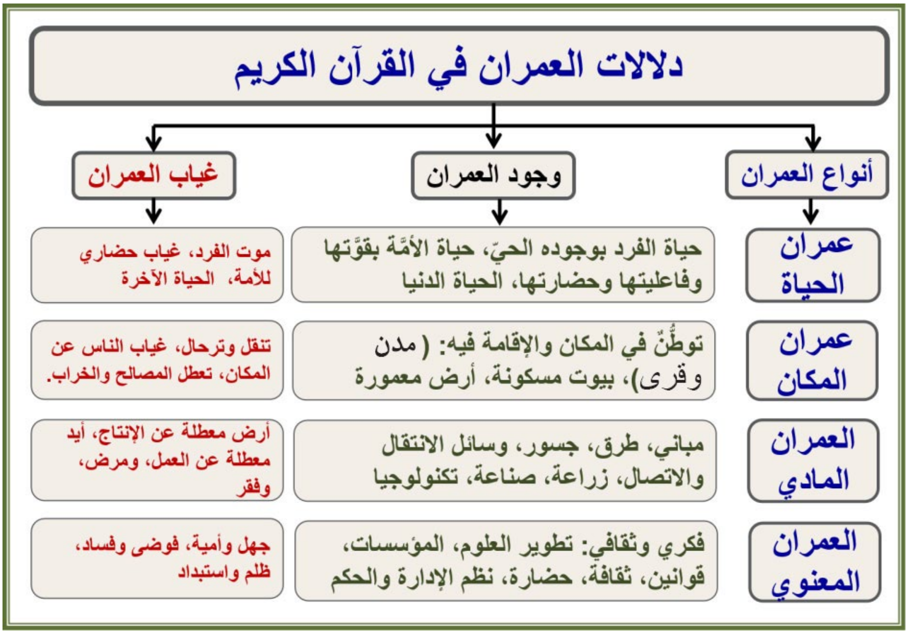

وحين خلق الله سبحانه الإنسان، وأسكنه هذه الأرض، فإنَّه سبحانه قد يسَّر له أسباب وجوده فيها، وأعلمه بمُقوِّمات هذا الوجود، فأمره أنْ يسعىٰ في مناكب الأرض، ليحصل علىٰ ما قَسم له من الرزق بصوره الـمُتعدِّدة. وزوَّده بالتمكين العقلي والعملي، ليكسب بذلك معايشه. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: 10]. بل إنَّ كل ما في الأرض وما حولها مُسخَّر للإنسان. قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13].

وقد عبَّر الله سبحانه عمّا يجنيه الإنسان، ويمتلكه من صور المال والممتلكات، بأنَّـها رزق الله الذي يسَّره للإنسان. فالرزق هو الـمال بكل أشكاله ممّا لا وجود للبشر دونه؛ من: ضروريات الـمَأْكل، والـمَشْرب، والـمَلْبس، ومُتطلَّبات الاستقرار والسكن والحماية، وحاجيات التشريع التي تُنظِّم شؤون الضروريات، وما يَتَّصِل بها من علاقات ومعاملات، وتحسينيات الترقّي والزيادة في الـممتلكات وأساليب الحياة وأدواتها. وهذا الرزق الدنيوي يتيحه الله تعالىٰ للإنسان بسَعْيه وحَرْثه بصرف النظر عن معتقداته وأخلاقه، فمَنْ يُرِدْ من الناس حَرْث الدنيا يُؤْتِهِ الله منها، حتىٰ لو لم يُرِدْ شيئاً من حَرْث الآخرة. قال ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورىٰ: 20]. بل إنَّه سبحانه وتعالىٰ يقول في حقِّ هؤلاء: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: 15]. أمّا الذي يريد حَرْث الآخرة فالله سبحانه يزيد له فيه، سواء بما يُيسِّره له، ويُعِينه عليه من زيادة في أعمال الـحَرْث في الدنيا أو بـما يَدَّخِره له من ثواب الآخرة. قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورىٰ: 20] (ابن عاشور، 1984، ج26، ص74).

وليس أوضح من أنَّ الزرق بمعنىٰ الـمال والممتلكات من مُقوِّمات الأُمَّة الـمُستخلَفة في هذا الـمال، من تأكيد الله سبحانه أنَّ ما يكون من مالٍ لآحاد الناس، إنَّـما هو في الأصل مالُ الله، استخلف فيه الأُمَّة كلَّها، فلا يجوز لسفيهٍ أنْ يتصرَّف فيه بِسَفَهٍ، حتىٰ لو كان الـمالُ مالَه الخاص.

وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا﴾ [النساء: 5].[22] "وقد جاء بعد هذه الآية الأمر بأنْ تُدفَع الأموال الخاصة باليتامىٰ إليهم عندما يُؤْنَس فيهم الرشد. والسفهاء يجوز أنْ يراد به اليتامىٰ؛ لأنَّ الصغر هو حالة السَّفَه الغالبة، ... ويجوز أنْ يراد به مُطلَق مَنْ ثبت له السَّفَه، سواء كان عن صغر أو عن اختلال تصرُّف، فتكون الآية قد تعرَّضت للحجر علىٰ السفية الكبير استطراداً للمناسبة. وهذا هو الأظهر؛ لأنَّه أوفر معنىٰ، وأوسع تشريعاً ... (و) المال الرائج بين الناس هو حقٌّ لمالكيه المُختصّين به في ظاهر الأمر، ولكنَّه عند التأمُّل تلوح فيه حقوق المِلَّة جمعاء؛ لأنَّ في حصوله منفعة للأُمَّة كلها، ... فلأجل هاته الحكمة أضاف الله تعالىٰ الأموال إلىٰ جميع المخاطبين؛ ليكون لهم الحق في إقامة الأحكام التي تحفظ الأموال والثروة العامة. وهذه إشارة لا أحسب أنَّ حكيماً من حكماء الاقتصاد سبق القرآنَ إلىٰ بيانها ... والقيام ما يتقوَّم به المعاش ... والمعنىٰ أنَّها تقويم عظيم لأحوال الناس" (ابن عاشور، 1984، ج4، ص234-235).

ولا يُتوقَّع أنْ يتحقَّق العمران في الأرض وفي حياة البشر دون أنْ يسعىٰ الإنسان ليُوفِّر مُتطلَّباته المادِّية من الأشياء والأدوات والوسائل، وكلُّها من صور الرزق والمال والممتلكات. فالعمران المادي يقوم علىٰ توظيف ما أوجده الله سبحانه للإنسان، ليسكن هذه الأرض؛ "لأنَّ في خَلْق الأرض وجميع ما فيها، وفي كون ذلك لمنفعة البشر، إكمالاً لإيجادهم ...؛ لأنَّ فائدة الإيجاد لا تكمل إلّا بإمداد الموجود بما فيه سلامته من آلام الحاجة إلىٰ مُقوِّمات وجوده" (ابن عاشور، 1984، ج1، ص378).

ولم يكتفِ الله سبحانه بتيسير هذه المُتطلَّبات المادِّية لقيام العمران المادي في الأرض، وإنَّما يسَّر له سُبُل تحقيق مُقوِّمات العمران المعنوي؛ من: عِلْم، وتشريعات، وتوجيهات أخلاقية. فحين أرسل الله تعالىٰ الأنبياء بالدين القَيِّم؛ ليستقيم أمر الناس علىٰ أساسه، جعل لهم تشريعات وأنظمة هي **مُقوِّمات** هذا الدين، ومن ذلك بسْطُ العدل والقِسْط في حياة البشر، فقال سبحانه: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي

[22] وقد ربط ابن منظور معنىٰ "القيام" في هذه الآية بالقِوَام: فقال: "وقِوَام الأمر، بالكسر: نظامه وعِماده. ... ويقال: هذا قِوام الأمر ومِلاكُه الذي يقوم به، ومعنىٰ الآية: أي التي جعلها الله لكم قياماً تقيمكم، فتقومون بها قياماً، ... والمعنىٰ جعلها الله قيمة الأشياء، فبها تَقُوم أمورُكم" (ابن منظور، 1997، مج12، ص499-500).

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: 28]؛ لأنَّ في هذا القسط "جِماع مُقوِّمات الدين الحقِّ الذي يجمعه معنى القِسْط؛ أي العدل تعليماً لهم" (ابن عاشور، 1984، ج8، ص86). وأمرهم بتنظيم شؤون الحياة في أنظمة وتشريعات اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وإدارية، وتربوية، ...، يكون فيها كلُّ فرد في الأُمَّة عنصراً في هذه الأنظمة، مُتحمِّلاً فيها ما يكون عليه من مسؤولية، ومُحاسَباً على تقصيره في أدائها.

فالعمران المعنوي الذي يتمثَّل في هذه الأنظمة والتشريعات هو قيمة عُليا من القِيَم التي تقوم بها الأُمَّة، وتتقوَّم بها. ولو بلغت الأُمَّة في العمران المادي ما بلغت، ولم يتحقَّق في وجودها العمران المعنوي، فإنَّما هو ظِلٌّ لا يلبث أنْ يتحوَّل عنها. فظروف الظلم والاستبداد في الحُكْم -مثلاً- تُؤْذِن بخراب العمران. والعجز عن إدارة الاقتصاد؛ حفظاً وعِلْماً وأمانةً، يُؤْذِن بانتشار الفساد والاحتكار والفقر، وانعدام الحرية. وغياب الشورى مُؤْذِن بتقطيع أواصر الأُمَّة، وسيادة البغضاء، والاختلاف في صفوفها.[23]

إنَّ قيمة العمران في حقيقتها وأهميتها لا تتحقَّق إلّا بالتكامل بين العمران المادي والعمران المعنوي. فالعمران المادي يحتاج -مثلاً- إلى بناء القدرة العسكرية التي تدفع بها الأُمَّة مخاطر الوقوع تحت سيطرة غيرها، ويحتاج إلى تطوير الوسائل والأدوات والتجهيزات التي تَلزمها من مُتطلَّبات الزراعة والصناعة والنقل والتواصل ...؛ حتى لا تكون تحت رحمة غيرها. وكل ذلك يحتاج إلى عِلْم وتعليم، وأنظمة وتشريعات.

وقد تطوَّرت بعض المفاهيم الـمُتَّصِلة بقيام الأُمم بصورة تتداخل فيها مجالاتها وتتكامل إلى درجة يصعب فيها تصوُّر قيام أيِّ مجال دون المجالات الأُخرى، ومن ذلك على سبيل المثال قيمة الأمن، التي جاء الإعلاء من شأنها في القرآن الكريم بصورة لافتة. فنبيُّ الله إبراهيم عليه السلام دعا الله

---

[23] قال المستشار طارق البشري عن صلة القضاء والمحاكم بالعمران: "ترى لو لم تقع مثل هذه القاعة (قاعة الـمحكمة) لاقتضاء الحقوق، ما الذي سيفعله الـمتخاصمون في تنازعهم حول ما يَدَّعيه كلٌّ منهم من حقٍّ له على الآخر؟ كان الاشتباك الـمادي سيقوم بدلاً من التشابك الكلامي، والتشابك الكلامي يقتضي صيغة يرتضيها الطرفان الـمتخاصمان، وهيئة يطمئنون إلى حياديتها بينهم، وإذا غاب هذان الأمران، فعلى العمران السلام." (البشري، 2011، ص42).

تعالى أنْ يجعل بلد البيت الحرام بلداً آمناً، فقدَّم طلب الأمن على توفير الرزق. قال ﷻ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 126]. وقد استجاب الله سبحانه لدعاء إبراهيم عليه السلام، وامتنَّ على قريش؛ فأطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف. قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: 3-4]. وقد وعد الله سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين، وتبديل خوفهم أمناً. قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55]. وعندما تحدَّث القرآن الكريم عن بعض أنواع الابتلاء التي يتعيَّن على الأُمَّة أنْ تحسب حسابها، وتتدبَّر شؤونها لمواجهته، كان أوَّل أنواع الابتلاء هو غياب الأمن وسيطرة الخوف. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: 155].

فقد كان الأمن -ولا يزال- مقصداً ضرورياً للإنسان في مواجهة ما يُهدِّد وجوده في حياته وكرامته؛ فرداً وأُمَّةً. فقيمة الأمن في أهميتها المعاصرة تعني مواجهة الأسباب التي تُهدِّد الأمن من داخل الأُمَّة وخارجها. وكثيراً ما ترتبط مُهدِّدات الأمن بالداخل والخارج معاً، لا سيَّما في الحياة المعاصرة التي تزداد فيها اعتمادية المجتمعات بعضها على بعض. فإلى جانب الأمن السياسي والعسكري، تزداد أهمية أنواع مُتعدِّدة من الأمن، مثل: الأمن المائي، والأمن الغذائي، والأمن الثقافي، والأمن الديني، والأمن الاقتصادي، والأمن الإعلامي، والأمن البيئي، والأمن الصحي، وأمن مصادر الطاقة، وأمن المعلومات ... فتحقيق الأمن يُوفِّر للأُمَّة فرصة توفير مُتطلَّبات أفرادها وجماعاتها، والاطمئنان على مصالحهم ومستقبلهم؛ ليُمكِّنهم ذلك من الإسهام في برامج التطوير والتنمية، والترقّي في حياة الأُمَّة بما يَلزم من فاعلية وكفاءة. ولكنَّ هذا الأمن لا يتحقَّق لأيَّة أُمَّة إلّا إذا كانت هذه الأُمَّة بمنزلة اليد العُليا بين الأُمم؛ فهي تأخذ وتعطي بإرادتها، وليس لحاجتها.

## رابعاً: سُنَّة التغـيُّر وقيام الأُمم

أشرْنا في مواقع مختلفة من هذا البحث إلى ارتباط سُنَن قيام الأُمم بالقِيَم والـمُقوِّمات التي يستند إليها هذا القيام، ثمَّ أشرْنا إلى أنَّ منظومة قِيَم التوحيد والتزكية والعمران تتجلّى في سائر سُنَن قيام الأُمم وبقائها. ومن هذه السُّنَن سُنَّةُ التغيُّر. فإذا كانت سُنَّة الله تعالى لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، فما علاقة هذه الصفة من صفات السُّنَّة بسُنَّة التغيُّر؟

إنَّ الله سبحانه وتعالى يُرسِل رُسُله إلى الناس لدعوة الـمشركين إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى، فيدعوهم إلى التغيُّر من الشِّرْك إلى الإيمان، ولدعوة مَنْ أقاموا حياتهم على ظلم الناس واستضعافهم واستعبادهم إلى إقامة العدل والقِسْط، فيدعوهم إلى التغيُّر من الظلم إلى العدل. وإذا كان الناس على حالة من الخير، فإنَّ الله تعالى لا يُغيِّر ذلك فيهم حتى يُغيِّروا هم مُقوِّمات الخير، ويأخذوا بمُقوِّمات الشَّرِّ وأسبابه. وهكذا، فإنَّ ظاهرة التغيُّر والتطوُّر هي سُنَّة من سُنَن الله تعالى في الخَلْق وفي الناس؛ ذلك أنَّ حكمة الله سبحانه أنَّ دينه الذي ارتضاه للناس يتفاعل مع طبائعهم ووقائع حياتهم.

ثمَّ إنَّ الفكر الذي يستمدُّه البشر من الدين هو تفاعلٌ بين ما يفهمه البشر من حكمة الله وما يفهمونه من طبيعة البشر. وما نفهمه نحن من طبيعة البشر أنَّ الواحد منهم يولَد في حالة مُعيَّنة، ثمَّ تتغيَّر حالته، ويستمرّ في التغيُّر؛ إذ يكون صغيراً فينمو ويكبر، ويكون جاهلاً فيتعلَّم. وبالرغم من اختلاف التغيُّر من حيث المقدار والاتجاه، فإنَّ حقيقة التغيُّر هي الأمر الثابث. فالتغيُّر سُنَّة من سُنَن الله التي لا تجد لها تبديلاً، وهو صفة أصيلة في حياة الإنسان، وفي حالة العالَـم الذي يعيش فيه. وهذا التغيُّر الدائم يَطَّرِد في الأشياء والأحوال والنفوس. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53].

إنَّ توظيف سُنَّة التغيُّر في قيام الأُمم يتجلّى في حاجة الأُمَّة إلى مواكبة التغيُّر الذي يحصل في الحالة الداخلية للأُمَّة، وفي علاقاتها بغيرها. فقد تطرأ ظروف تُسبِّب شيئاً من الضعف والقصور يَلزم

معالجتها، بالتعامل مع الأسباب التي أدَّت إلى هذه الظروف، ومعالجتها بإجراء ما يَلزم من تغييرات. وتأتي أهمية الحديث عن سُنَّة التغيُّر، وطرق الاستجابة له في الظروف المعاصرة، من أنَّ حالة العالَم تتغيَّر اليوم بصورة سريعة جداً، وأيُّ تغيُّر في مكان من هذا العالَم يظهر تأثيره مباشرة في معظم الأماكن الأُخرى من العالَم؛ ما يستدعي أنْ يتوافر للأُمَّة من الخُطَط والبرامج الاستشرافية ما يجعل استجابتها للتغيُّرات وسيلة لتوظيف هذه التغيُّرات لمصلحتها.

وقد شهد العالَم في القرنين الأخيرين العديد من التغيُّرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية والتقانية؛ ما دعا كثيراً من الأُمم إلى التعامل مع هذه التغيُّرات والانتفاع بها. ومن الـمُؤسِف أنَّ الأُمَّة الإسلامية -في سائر مجتمعاتها ودولها- كانت أضعف من غيرها في الاستجابة المناسبة لهذه التغيُّرات واستثمار فرصها، فكانت في معظم الأحيان بيئة سهلة لترويج التيّارات الفكرية الـمُتناقِضة، والخضوع للضغوط السياسية والاقتصادية التي تمارسها القوى الفاعلة في العالَم، ولم تستطع توظيف الموارد الهائلة التي تملكها لخدمة أنماط حياتها أو فرض هيبتها وكرامتها والحضور الفاعل على ساحة العالَم، فضلاً عن احترام قِيَمها المرجعية، ومصالحها السياسية والاقتصادية، واكتفت بأنْ تكون سوقاً لكلّ ما يأتيها من الخارج، وعالةً على الآخرين في ضرورياتها وحاجياتها. ولا تزال وتيرة التغيُّر والتطوُّر في حالة من التسارع المستمر في أحوال العالَم كلِّه. فكلُّ تغيُّر يَلزمه استجابة مناسبة له؛ فإنْ كان التغيُّر إيجابياً بوجهٍ من الوجوه، فإنَّ الاستجابة المناسبة هي في توظيفه واستثماره في تغيير إيجابي على أرض الواقع. وإنْ كان التغيُّر سَلبياً بوجهٍ من الوجوه، فإنَّ الاستجابة المناسبة هي التغيير اللازم لتقليل أثره والحَدِّ من سَلبياته.

ونحن نرى أنَّ سُنَّة التغـيُّر هذه تَتَّصِل بمنظومة القِيَم التي تحدَّثْنا عنها. فالتوحيد -مثلاً- يعني في جُمْلة ما يعنيه أنَّ الله سبحانه يريد للناس أنْ يكونوا أُمَّة واحدة في إيمانهم بالله الواحد، ويريد أنْ يجمع الناس جميعاً؛ ليكونوا في ظِلِّ ما يُوفِّره لهم دين الله الواحد من رحمةٍ وعدلٍ وبِرٍّ، حتى لو اختلفت درجات إيمانهم بهذا الدين ما بين الإيمان والكفر. وضمن هذا المقصد التوحيدي، فإنَّ الإسلام لا يتوقَّع أنْ يظلّ الناس على حالة واحدة؛ لذا جاءت تشريعاته للتعامل مع التنوُّع

والاختلاف والتغيُّر في عقول الناس وقلوبهم ومواقفهم. ويبقى مجتمع الأُمَّة الإسلامية مفتوحاً لِمَنْ يريد أنْ يدخل فيه مُؤمِناً مُسلِماً، أو يريد أنْ يدخل فيه مُستأنِساً ومُستأمِناً؛ لِما تُوفِّره له تشريعاته من أمان في نفسه ودينه وماله. فأُمَّة التوحيد الواحدة ليست مُغلَقة على نفسها إزاء سائر الناس، وإنّما تأمُل أنْ يدخل كلُّ الناس في أُمَّة التوحيد، وتسعى لتحقيق هذا التغيير. وسواء دخل غير الـمسلمين في أُمَّة الإسلام مسلمين أو ظلّوا على أديانهم، فإنَّ باب الدخول يبقى مفتوحاً؛ استلهاماً لسُنَّة التنوُّع في واقع المجتمع، وقِيَم البِرِّ بالمختلفين، ومبدأ الحرية في الاعتقاد.

وقد ظهرت تجلِّيات التوحيد في التعامل مع التغيُّرات التي طرأت على حياة الأُمَّة، لا سيَّما في بناء المؤسسات التي كانت تستجيب للخبرات والتجارب البشرية في حياة الأُمَّة، أو تجد النافع عند الأُمم الأُخرى، كما في حالة تدوين الدواوين وتوحيد لغتها إلى العربية بدلاً من اللغات الرومية والفارسية والقبطية التي بدأ التدوين بـها. وكما هو الحال في سَكِّ العُمْلة الخاصة بالأُمَّة الإسلامية بدلاً من اعتماد الدينار الرومي والدرهم الفارسي. وقد بدأ التعليم في المسجد، ثمَّ بُنِيت المؤسسات التعليمية على اختلاف مستوياتها، وبدأ الطِّبُّ بمجموعة من الأطِبّاء، ثمَّ أصبح مُمثَّلاً بمؤسسات المارستانات أو المستشفيات، وبدأت الأوقاف بداية بسيطة، ثمّ تطوَّرت لتشمل مؤسساتُ الأوقاف سائرَ الخدمات الاجتماعية والتعليمية والدفاعية التي تحتاج إليها الأُمَّة، ولتصبح عنصراً أساسياً في النظام الاقتصادي في حياتها. وهكذا، فإنَّ بناء المؤسسات وتطوُّرها كان نموذجاً لحالة التغيُّر الإيجابي المستمر، وواحداً من الـمُقوِّمات التي مكَّنت الأُمَّة من الاستمرار في وحدتها، وتماسكها الداخلي، وقوَّتها، وهيبتها بين الأُمم.

وحتى في الجانب الفني والجمالي، فقد تجلَّت قيمة التوحيد في حياة الأُمَّة بصورة مُتميِّزة، فكانت الفنون الجمالية في الأشكال والألوان والأصوات وسيلة من وسائل التعريف بالأُمَّة، والتعبير عن شخصيتها ومرجعيتها التوحيدية، عِلْماً بأنَّ الأُمَّة في بداية عهدها كانت مُنشغِلةً عن كثير من جوانب الفن والتعبير الجمالي، ولكنَّ التغيُّر والتطوُّر والاستقرار الذي طرأ على الحياة الثقافية والاجتماعية استدعى شيئاً من هذا الاهتمام، وكانت الاستجابة في تطوير فَنٍّ إسلامي مُتميِّز، أهمُّ ما يَتَّصِف به أنَّه

فنٌّ توحيدي خالص؛ فقمَّة الوعي بالجمال هي الإيمان بأنَّ الله سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنَّه يتعالى عن المثيل والنظير. وللتعبير عن التوحيد الـمُطلَق، فقد غابت عنه الفنون التشخيصية تـماماً، وحتى الزخرفة الإسلامية كانت زخرفة تجريدية تمتدُّ في اللانهائي؛ تعبيراً عمّا لا يُمكِن التعبير عنه.

وهكذا، فإنَّ جميع التغيُّرات التي طرأت على حياة الأُمَّة؛ تعبيراً عن سُنَّة التغيّر، كانت تجد الاستجابات المناسبة لها استناداً إلى عقيدة التوحيد، فكان للتوحيد تجلِّياته في نُظُم الحياة جميعها؛ المعرفية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والفنية، وغير ذلك.

وتاريخ الأُمَّة الإسلامية شهد كثيراً من حالات التغيُّر والتغيير في نُظُم الحُكْم، والإدارة، والتعليم، والرعاية الصحية، وأدوات الإنتاج الصناعي والزراعي، وطرق التواصل، وأدوات الحرب، وغير ذلك. ومع ذلك بقيت وحدة الأُمَّة في مرجعياتها وقِيَمها محفوظة قروناً طويلةً، بالرغم مـمّا كان يحصل من فتن وحروب نتيجة اختلاف الرؤى والاجتهادات، أو تضارب المصالح والأهواء.

وقيمة التوحيد تتجلّى في صور مختلفة، وقد تتغيَّر من صورة إلى أُخرى، ومن مستوى إلى آخر. فسُنَّة الله تعالى في الخَلْق أنْ يبقى الناس مختلفين في كثير من الأمور، وهم مختلفون أساساً في درجة الهدى والضلال. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118-119]؛ ذلك أنّ "الحكمة التي أُقيم عليها نظام هذا العالَـم اقتضت أنْ يكون نظام عقول البشر قابلاً للتطوُّح بهم في مسلك الضلالة أو في مسلك الهدى، على مبلغ استقامة التفكير والنظر، والسلامة من حجب الضلالة، ...، ولو شاء الله تعالى لخلق العقول البشرية على إلهام مُتَّحِد لا تعدوه، كما خلق إدراك الحيوانات العجم على نظام لا تتخطّاه من أوَّل النشأة إلى انقضاء العالَـم ... فلا جَرَمَ أنَّ الله تعالى خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض" (ابن عاشور، 1984، ج12، ص187–188). ومع

ذلك، فإنَّه سبحانه كان يُرسِل إليهم الأنبياء والرُّسُل، ويُيسِّر لهم من دعاة الخير من أتباع الرُّسُل؛ لأنَّ إمكان التغيير بين الهدىٰ والضلال يبقىٰ مفتوحاً للبشر في كل حين.

ومن تجلِّيات قيمة التوحيد في توجيه عِلْم الإنسان والسعي الدائب لزيادته وترقيته وتصحيحه، بوصفه يخضع للتغيُّر الدائم، رؤيتُه لمبدأ وحدة الحقيقة؛ فالله سبحانه خالق الحقائق الـمُطلَقة التي يحيط بعِلْمها، وخالق الحقائق الواقعية التي يوحي إلىٰ الإنسان بما يريد سبحانه منها، ويُيسِّر لعقله أنْ يكتشفها. ومن ثَمَّ، فهو سبحانه الموجود الحقُّ الواحد الذي يعلم الحقيقة كاملة. "والحقيقة التي هي موضوع العقل مُتضمَّنة في قوانين الطبيعة التي هي سُنَن الله في خَلْقه، وهي بأمر الله سُنَن دائمة ثابتة. ومن هنا يُمكِن أنْ تُكتشَف، وتُقنَّن، ويتمُّ تعامل الإنسان معها، وتُستخدَم للوفاء بمسؤولية الإنسان في الإصلاح والإعمار وخدمة مصالح الإنسان ...

إنَّ وحدة الحقيقة أو طبيعة قوانين الـمخلوقات والسُّنَن الإلهية، تفرض أنَّ باب النظر في طبيعة الخَلْق أو في أيِّ جزئية منه، لا يُمكِن أنْ يُغلَق؛ وذلك لأنَّ سُنَن الله في خَلْقه غير محدودة، فمهما عرفنا ومهما تعمَّقنا في هذه الـمعرفة، فلا يزال هناك دائماً الـمزيد منها ليُكتشَف ويُسخَّر. ومن هنا، فإنَّ الاستعداد لقبول الجديد من الـمدركات والبراهين، والإصرار علىٰ متابعة البحث، هي خصائص لازمة للعقل الـمُسلِم ... فالموقف الناقد لكل الدعاوىٰ الإنسانية، والبحث الدائب وراء قوانين الطبيعة التي لا تكون نهائية أبداً، هما في الوقت ذاته شرطان لازمان للمنهج الإسلامي وللعِلْم الأصيل" (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلامية المعرفة، 1992، ص90-93).

والتغيُّر سُنَّة أساسية تَتَّصِل بقيمة التزكية؛ فالتزكية تغيُّر متواصل في حالة النفس الإنسانية من الأهواء والشهوات والشُّبُهات في اتِّجاه الترقية والتطهير والزيادة في أبواب الخير. والواجب علىٰ الـمُؤمِن أنْ يسعىٰ للكسب من أشكال الرزق؛ من: زراعة، وصناعة، وتجارة، وتقديم أنواع الخدمات، فيجتمع إليه من أشكال الرزق ما يؤدّي عليه زكاته. ولا يوجد حَدٌّ لكسب الرزق؛ فالغنيُّ لا ينبغي أنْ يتوقَّف عن الكسب المشروع، ليتمكَّن من الاستمرار في دفع الزكاة ضمن مصارفها المشروعة، التي تتواصل فيها عمليات التغيُّر والتغيير من حال إلىٰ حال أفضل. ولا ينبغي للفقير

أيضاً أنْ يبقى فقيراً ما دام أنَّه قادر على التغيُّر من حالة الفقر إلى حالة السعة والاكتفاء، وفي ذلك تزكية لنفسه، وتغيير لحالة يده من أنْ تبقى اليد السفلى (البخاري، 1998، كتاب: الزكاة، باب: لا صدقة إلّا عن ظهر غنى، حديث رقم1429، ص278).[24]

والعلاقات الاجتماعية الـممتدة في النسب والمصاهرة، وما يكون فيها من مشاعر وعلاقات، لا بُدَّ أنْ تسعى لتحقيق مقاصد هذه العلاقات من سكن ومودَّة ورحمة، وتتجاوز ما قد يحصل من مشكلات وخلافات، ومعالجتها بالمعروف والتراضي من أجل تحقيق ما هو أزكى وأطهر لجميع الأطراف. فالتشريعات والتوجيهات القرآنية تمنع تحقُّق الأسباب التي تُحدِث التغيُّر من حالة التزكية بما فيها من ودٍّ ومرحمة إلى حالة من البغضاء والكراهية والخصومة.

وتدور قيمة التزكية مع واقع الأُمَّة مهما كانت الحالة التي يتغيَّر فيها كيان الأُمَّة؛ فالقِيَم الـمُعبِّرة عن علاقات التماسك والتكامل في الـمجتمع، وهي الأساس في وحدة كيان الأُمَّة، إنَّما تبدأ بالشعور الجمعي بالأُخوَّة الإيمانية والتعاطف الوجداني، وتتواصل بالسعي الدائب لبناء أدوات الاجتماع والائتلاف في مشاريع الدعم والمؤازرة والنموِّ والتطوير ضمن روح التعاون والتكامل، وليس التنافس والتسابق. وإذا لم تسمح الظروف لأدوات الاجتماع والائتلاف على الكيانات السياسية القائمة، فإنَّ ذلك لا يمنع أنْ تقوم تلك العلاقات على مستوى الـمؤسسات والجمعيات ومراكز البحث والدراسات، ليتمَّ عن طريقها تبادل الخبرات وتطويرها، وتيسير سُبُل التعاون بين الكيانات السياسية.

إنَّ قيام الأُمم وبقاءَها يقوم على قواعد وأُسس وقِيَم، منها قيمة العِلْم والمعرفة، وهي تشمل العِلْم في مجالات الوجود كلها؛ العِلْم بما يوحي به الله تعالى عن وجوده الـمُطلَق سبحانه، والعِلْم بسُنَن الوجود المادي الطبيعي في الآفاق والـمُسخَّرات، والعِلْم بسُنَن الاجتماع البشري، والعِلْم بسُنَن النفس الإنسانية وطواياها. فالعِلْم بهذه السُّنَن والقوانين والعادات عِلْم ضروري، دعا القرآن

[24] يشهد لهذا المعنى الحديث النبوي الذي أخرجه البخاري: "اليد العُليا خير من اليد السفلى، فالعُليا هي الـمُنفِقة، والسفلى هي السائلة."

الكريم إلى اكتسابه بطرقه وأسبابه؛ لتحقيق المقصد الأساس من هذا العِلْم، وهو الاعتبار. والاعتبار هو تدبُّر العلاقات القائمة بين الأسباب والنتائج، والـمُقدِّمات ومآلاتها؛ ليَتَّعِظ الإنسان بذلك، ويُصحِّح ما قد يكون عنده من خطأ في العِلْم، ويتجنَّب أسباب الخطأ والضلال، ثمَّ يمارس حياته وسلوكه في الواقع العملي بوَعْي وعلى هدىً وبصيرة.

وسُنَّة اكتساب العِلْم والتبحُّر فيه تشمل علوم الماضي، وعلوم الحاضر، وعلوم المستقبل، وقد تكرَّر ذكر سُنَن الله تعالى في الماضي، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾ [آل عمران: 137]. قال ابن عاشور إنَّ السُّنَّة "هي السيرة من العمل أو الخُلُق الذي يُلازِم الـمرءُ صدور العمل على مثالها ... والمعنى: قد مضت من قبلكم أحوال للأُمم، جاريةً على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخَلْق ... "وهي أنَّ قوَّة الظالمين وعُتوَّهم على الضعفاء أمر زائل، والعاقبة للمُتَّقين الـمُحِقّين"،... وفي الآية دلالة على أهمية عِلْم التاريخ؛ لأنَّ فيه فائدة السَّيْر في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأُمم وفسادها. قال ابن عرفة في ذلك: "السَّيْر في الأرض حِسِّي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ، بحيث يحصل للناظر العِلْمُ بأحوال الأُمم، وما يُقرِّب من العِلْم، وقد يحصل به من العِلْم ما لا يحصل بالسَّيْر في الأرض لعجز الإنسان وقصوره" (ابن عاشور، 1984، ج4، ص95-97).

ولكنَّ العِلْم الضروري لا يقتصر على العِلْم بالماضي؛ فالاعتبار بالماضي يعني الحاضر والمستقبل، والعِلْم بالحاضر والمستقبل ميدان مفتوح للتغيُّر الدائم؛ لضرورته البالغة في قيام العمران البشري. والتغيُّر فيه جزء من الطبيعة البشرية؛ إذْ يولَد الإنسان جاهلاً، لا يعرف من العِلْم شيئاً، ثمَّ يبدأ بالتعلُّم. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: 78]. وهذه الثلاثة التي جعلها الله للإنسان هي له أدوات للمعرفة والعِلْم. وما يعلمه الإنسان عمّا خلقه الله تعالى في هذا العالَـم يبقى قليلاً، مهما تغيَّر وتزايد. قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]. وحتى لو أحاط الإنسان عِلْماً بكل شيء أُتيح له أنْ يعلمه في وقت مُعيَّن، فإنَّ الله سبحانه ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[فاطر:1]، وهو سبحانه ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 8]، والله سبحانه يزيد في عِلْم الإنسان عِلْماً بما لم يكن يعلمه: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]. ولذلك طلب الله سبحانه من رسوله ﷺ أنْ يدعو ربَّه أنْ يزيده عِلْماً، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: 114]. وكلُّ ذلك تعبير عن سُنَّة التغيُّر التي تقتضي من الأُمَّة أنْ تُواصِل سعيها في الزيادة من العِلْم؛ لضرورة ذلك، وأهميته في مُقوِّمات وجود الأُمَّة واستمرار عمرانها.

ومثل ذلك التغيُّر في حالة العِلْم والمعرفة يتجلّى في استمرار التطوير في مُتطلَّبات السلامة الصحية والوقاية من الأمراض، والتغيُّر في استخدام مستجدات الحضارة وتطبيقات العِلْم والتكنولوجيا؛ لتيسير أسباب الحياة؛ من: طعام، وشراب، وسكن، وتنقُّل، واتصال، وغير ذلك.

ومن أظهر صور التغيُّر الدائم في حالة العِلْم، وصلتها بعمران الأُمَّة، التغيُّرُ في إعداد أسباب القوَّة المادِّية اللازمة لحماية الأُمَّة قَدْر الاستطاعة. وقَدْرُ الاستطاعة مفتوحٌ نوعاً وكمّاً، ويتغيَّر مُتواكِباً مع مستجدات القوَّة في عناصرها وأدواتها، فإذا كان من أدوات القوَّة، في مرحلة من المراحل، رباطُ الخيل، ثمَّ تغيَّر إلى الدبّابة والطائرة، فقد تغيَّر اليوم إلى تسيير الأدوات المقاتلة عن بُعْد دون ركوبها المعروف والمألوف. ومن الواضح أنَّ التغيُّر في وسائل الحرب والقتال سوف يتواصل ويستمرُّ. وكل أُمَّة تسبق غيرها في هذه الوسائل تكون أقدر على توفير مُقوِّمات القوَّة التي تفرض هيبتها، وتمنع إمكانية العدوان عليها.

والآية القرآنية التي تشير إلى ضرورة إعداد القوَّة اللازمة تفتح آفاق الفكر على حالة العِلْم وصلتها بمُقوِّمات قيام الأُمَّة وحمايتها من مخاطر، بعضها معروف، وبعض آخر مجهول. فهذه الآية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال: 60] تُوضِّح عدداً من المسائل اللافتة في نصِّها:

فالمسألة الأولى: الإعداد، سواء استُعمِلت المعدات أو لم تُستعمَل.

والمسألة الثانية: تعميم قَدْر الطاقة من أسباب القوَّة التي تتغيَّر باستمرار.

والمسألة الثالثة: التمثيل على نموذج من نماذج القوَّة، وهو رباط الخيل. وقد جاء ذكر النموذج في صيغة الرباط تعبيراً عن جاهزيته للانطلاق عند الحاجة.

والمسألة الرابعة: ملاحظة أنَّ الإعداد ليس للاستعمال بالضرورة، وإنَّما لإرهاب العدوِّ الظاهر المعروف الذي يتربَّص بالأُمَّة، فيمنعه عِلْمه بما أعدَّتْه من الطمع فيها.

والمسألة الخامسة: الانتباه إلى أنَّ الإعداد المطلوب ليس فقط للعدوِّ الظاهر المعروف، وإنَّما لعدوٍّ قد لا يكون معروفاً، وهو نوع من الإعداد الإضافي لمواجهة طوارئ عدوانية مجهولة.

والمسألة السادسة: بيان أنَّ الإشارة إلى الأعداء الذين لا تعرفهم الأُمَّة في مرحلة من المراحل تدعو الأُمَّة إلى الحذر والانتباه، فتزيد من قدرتها على تحرّي مصادر العداوة الـمُتوقَّعة، واكتشافها بطرق الاستخبار المناسبة، حتى يشمل إعداد القوَّة المطلوبة ما يَلزم لمواجهة هذه المصادر.

والتغيُّر سُنَّة أساسية تَتَّصِل بقيمة العمران بصورة أوضح ظهوراً؛ إذ يتطلَّب العمران الاستفادة من التجارب، والاعتبار بالخبرات التي تمرُّ بها الأُمَّة وغيرها من الأُمم، في التحديث والتطوير من أجل ضمان استمرار عناصر التقدُّم العمراني الـمادي في الأساليب والوسائل والأدوات، وعناصر التقدُّم العمراني الـمعنوي في الأنظمة والتشريعات. فالتغيُّر الذي يحدث في العالَـم يقتضي مواكبته، والتكيُّف معه بما يَلزم من تغيير في الوسائل والأدوات، وتغيير في الأنظمة والقوانين والإجراءات.

وسُنَّة التغيُّر تَتَّصِل بحاجة الأُمَّة إلى الإصلاح كلَّما طرأ النقص والفساد في حياتها؛ إذ من الطبيعي أنْ تكون نشأة أيَّة أُمَّة مُرتبِطة بظروف النشأة ونوعية الـمُنشِئين، ولكنَّ الأُمَّة الإسلامية منذ بَدْء تشكُّلها في عهد النبوَّة سرعان ما بدأت تتجاوز ظروف النشأة؛ فبعد عقود قليلة من الزمن وجدنا الأُمَّة تتكوَّن من أجناس وأعراق ولغات وثقافات، تجتمع حول الـمعتقدات والأفكار الـمُؤسِّسة، ووجدنا السلطة الفعلية فيها تنتقل من فئة إلى أُخرى، ووجدنا عاصمتها تنتقل من مكان إلى آخر. ومن الـمُؤكَّد أنَّ الأساس الفكري لبناء الأُمَّة الإسلامية هو الذي حافظ على وجودها واستمرارها عبر القرون. وقد مَرَّت الأُمَّة الإسلامية في تاريخها بمراحل ودورات من التقدُّم والتخلُّف في الاجتهاد والتجديد الفكري؛ لذا وجدنا أنَّ جهود الإصلاح الفكري الإسلامي لم

تتوقَّف عبر العصور. ومع ذلك، فإنَّ هذا التاريخ لم يَخْلُ من حركات شابتها انحرافات فكرية، أشغلت الأُمَّة، واستنـزفت جزءاً من طاقاتها الفكرية والعملية، لكنَّها لم تنحرف بالأُمَّة في مُجمَل معتقداتها وأفكارها؛ فالمخزون الفكري في الوحي الإلهي والهدي النبوي كان دائماً -ولا يزال- حاضراً في حماية الأُمَّة من إمكانية اجتماعها على ضلال.

والأُمَّة الإسلامية اليوم تحتاج إلى أنْ تُغيِّر واقعها بجهود إصلاحية في جميع مجالات حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكنَّ الإصلاح الفكري سيبقى الـمُنطلَق للإصلاح في هذه الجوانب وغيرها؛ فالإصلاح السياسي يحتاج إلى فكر سياسي، والإصلاح الاقتصادي يحتاج إلى فكر اقتصادي، وهكذا. والإصلاح الفكري الـمقصود هنا يقتضي استيعاب الفرص والتحدِّيات التي تُواجِهها الأُمَّة اليوم في ضوء ما أشرْنا إليه من مصادر استمداد الفكر في الخبرة البشرية الـمعاصرة، وتكييفها وتوظيفها في ضوء الـمقاصد التي تهدي إليها الـمرجعية الحاكمة في الوحي الإلهي والهدي النبوي.

إنَّ الحضور الفاعل للأُمَّة على ساحة العالَـم يتحقَّق بشرط الإصلاح في جانبين؛ الأوَّل: إصلاح الفرد ليكون عضواً نافعاً في بناء الأُمَّة، ساعياً طوال حياته من أجل مجدها. والثاني: إصلاح نظام الأُمَّة القائم على منظومة من القِيَم التي تُحقِّق لها القوَّة من داخلها والهيبة من خارجها. ولا شكَّ في أنَّ هذين الجانبين من شرط الإصلاح مُتكافِئان في حاجة كلٍّ منهما إلى الآخر.

وتتجلّى سُنَّة التغيُّر في علاقتها بسُنَن أُخرى، مثل: سُنَّة التمكين، وسُنَّة التدافع، وغير ذلك. فتمكين الأُمم في الأرض هو شيءٌ من عطاء الله سبحانه، وهو عطاءٌ مبذول للمؤمنين والكافرين، وقد يفتح الله للكافرين أبواب كل شيء، في حين يبتلي المؤمنين بالفقر والهزيمة، وليس في ذلك تناقض مع وعد الله بالتمكين للمؤمنين.

إنَّ سُنَّة التمكين تجيء بإرادة الله سبحانه وَفق أسبابها؛ فمَنْ أخذ بأسباب التمكين من غير المؤمنين، فإنَّ الله سبحانه يُمكِّن له من باب الاستدراج والإملاء إلى حين. ويوم لا يأخذ المؤمنون

بأسباب التمكين، فإنَّ الله يحرمهم منه من باب الابتلاء، إلى أنْ يُغيِّروا ما بأنفسهم من التخلُّف عن الأخذ بالأسباب، ويصبحوا أهلاً للتمكين. وهكذا يُداوِل الله سبحانه الأيام بين الناس.

ومن سُنَّته تعالى أنْ يتواصل التدافع بين الناس حتى لا تفسد الأرض تمام الفساد. فما يظهر من تمكين لغير المؤمنين، إنَّما هو نتيجة "غياب أهل الحقِّ عن الساحة، بتخلُّفهم عن الأخذ بالأسباب. فقد اقتضت مشيئة الله سبحانه أنْ يكون للتمكين أسبابه، وأنَّ هذه الأسباب تفعل فعلها، وتؤدّي نتائجها بمشيئة الله ﷻ. فالمؤمنون يأخذون بالأسباب، ويتوكَّلون على الله تعالى، وغيرهم يأخذون بالأسباب، ويَتَّكِلون عليها، فإذا نجحوا في تحقيق أهدافهم فُتِنوا بالأسباب، وزاد بُعْدهم عن الله، فتأتي سُنَّة الله وإرادته، فينتهي التمكين بقَدَر من أقدار الله التي لم يكونوا يحتسبونها. وأمثلة التاريخ كثيرة في هذا الباب" (قطب، 1991، ص53-64).

## خاتمة

حاول هذا البحث أنْ يربط بين السُّنَن التي يَلزم الاعتبار بها والقِيَم التي يَلزم الاستناد إليها في بناء الأُمم أو تجديد بنائها وضمان بقائها واستقرارها. وقد تبيَّن لنا أنَّ نظام الاعتقاد -كما يتجلّى لنا في نصوص القرآن الكريم- يتكامل مع كلٍّ من نظام المعرفة، ونظام القِيَم. وتشترك هذه النُّظُم الثلاثة في تكوين رؤية كلية، تُنظِّم فكر الإنسان وسلوكه في ثلاثة عناصر من هذه الرؤية، هي: رؤيته لله الخالق، وصفاته، وأفعاله سبحانه. وتحتكم رؤيته إلى التوحيد؛ ورؤيته للإنسان وحياته ووظيفته، وتحتكم إلى التزكية؛ ورؤيته للعالَـم الطبيعي والاجتماعي والنفسي، وتحتكم إلى العمران، فالتوحيد والتزكية والعمران هي منظومة قِيَم عُليا، تحكم الفكر والسلوك في حياة الفرد والجماعة والأُمَّة.

فسُنَن قيام الأُمَّة وبقائها تقوم على وحدتها واستقلالها الـمُستمَدَّيْن من تجلِّيات قيمة التوحيد، وتقوم على تماسك عناصرها في صفاء النفوس ومشاعر المودَّة، والتكافل المادي والمعنوي، وهو ما يُستمَدُّ من تجلِّيات قيمة التزكية، وتقوم على بناء النُّظُم والتشريعات وتنظيم العلاقات وتوظيف الطاقات المادِّية والبشرية في تيسير سُبُل الحياة وترقيتها، وهو ما يُستمَدُّ من تجلِّيات قيمة العمران

المادي والمعنوي. ومن ثَـمَّ، فإنَّ منظومة القِيَم هذه هي معايير للحُكْم على تحقيق الإنسان مقصدَ الاستخلاف في الأرض.

وإذا كان ظهور الأُمَّة وبقاؤها، إنَّما يكون وَفق سُنَن إلهية، فإنَّ هذه السُّنَن تَتَّصِل اتصالاً مباشراً بكلٍّ من التوحيد، والتزكية، والعمران، بوصفها قِيَماً حاكمةً عُليا للوجود البشري، ويتفرَّع منها سائر مستويات القِيَم التي تحكم حياة الإنسان وفكره وسلوكه، ويتأسَّس عليها كل الـمُقوِّمات التي يقوم عليها بناء الأُمم.

وقد تبيَّن لنا أنَّ سُنَّة الله تعالى في قيام الأُمَّة وبقائها هي وحدتها، ووجودها المستقل عن غيرها، والمكتفي بموارده ومصادره التي تكفيه الضروريات والحاجيات والتحسينيات، دون أن يمنع ذلك من تعاون الأمة مع غيرها في المشترك من جلب المصالح ودرء المفاسد. ولا تقوم علاقة الأُمَّة بغيرها إلّا على شروطها وقراراتها. وسُنَّة الله تعالى في تماسك كيان الأُمَّة هي عمق مشاعر الودِّ والرحمة، وعلاقات التكامل والتكافل بين أفرادها، وقيام نظامها على حقِّ أفرادها في المشاركة في الرأي والقرار، وبسط العدل، وضمان الحرية.

وبناء الأُمم ليس مرحلة تـمرُّ بها الأُمَّة وتنتهي، فإذا كان البناء المادي يحتاج إلى صيانة بين الحين والآخر، أو ترميم جذري في بعض الأحيان، أو تنتهي صلاحيته تماماً، ليعاد بناؤه من جديد؛ فإنَّ البناء البشري لا يَسَعُه إلّا التغيُّر الدائم؛ إذ تستجدُّ الظروف الداخلية والخارجية التي تحتاج إلى التكيُّف معها أو مواجهة مُتطلَّباتها. والأجيال التي نشأت على نـمط من الثقافة والفكر والممارسات، قد لا تكون مُؤهَّلة للتكيُّف مع التطوُّرات والظروف الـمستجدة؛ فيكون بناء الأجيال الجديدة للأُمَّة أمراً لازماً.

ولذلك، فإنَّ قِيَم الإصلاح والتجديد والنهوض لا تأخذ موقعها المناسب في الثقافة الإسلامية والحضور الإسلامي على ساحة العالَـم دون أنْ تكون امتدادات مُتفرِّعة من منظومة القِيَم العُليا: التوحيد، والتزكية، والعمران، التي لا بُدَّ من استدعائها في واقع الأُمَّة في كلِّ حين.

وإذا كان المسلمون يعتزّون بقوَّة القِيَم التي يعتمدونـها معايير معنوية لوجودهم وسعيهم، فإنَّ ذلك لا يغني شيئاً إذا لم تستند قوَّة القِيَم إلى قيمة القوَّة التي تُعبِّر عن السند الحقيقي لوجودهم وحضورهم؛ فلا بُدَّ من التوازن بين الأمرين. ولا يُعَدُّ ذلك تقليلاً من شأن الإيمان بالقِيَم، وإنَّما هو تأكيد لضرورة العمل بمقتضيات الإيمان، وإنَّ قيمة العمل تتمثَّل في نتائجه، وهذه النتائج هي الـمُعوَّل على حضوره، وتقويـمه، والمسؤولية عنه.

وقد اخترنا في هذا البحث أنْ نتحدَّث عن سُنَّة التغيُّر وامتداداتـها في منظومة القِيَم العُليا، ويُمكِن بالطريقة نفسها الحديث عن سُنَن أُخرى، مثل: سُنَّة التمكين، وسُنَّة التدافع، وغيرهما من السُّنَن، بحيث يتأسَّس عندنا نوع من الفهم والفِقْه الذي يُمكِن أنْ نُطلِق عليه اسم فِقْه السُّنَن. فإذا كان فِقْه الصلاة هو العِلْم بالأحكام الشرعية الخاصّة بالصلاة واستنباط هذه الأحكام من أدلَّتها، فإنَّ فِقْه السُّنَن هو العِلْم بالأحكام والتوجيهات التي تختصُّ بالسُّنَن والقوانين التي جعلها الله ضابطة وحاكمة لسلوك الأشياء الطبيعية والحياة البشرية، ومعرفة هذه الأحكام من النصوص الشرعية التي تتعلَّق بـها. ومن ذلك فِقْه سُنَن قيام الأُمم؛ أي العِلْم بمعرفة القوانين التي تحكم قيام الأُمم وبقاءَها واستقرارها؛ فاكتشاف هذه السُّنَن أو القوانين وفهمها وتوظيفها يعني فهم واقع الأُمَّة وما يَتَّصِف به هذا الواقع من قوَّة وضعف، وصحَّة ومرض، وما يحتاج إليه من تغيير وإصلاح.

ولا شكَّ في أنَّ الأُمَّة الإسلامية تعاني في واقعها المعاصر جُمْلةً من المشكلات، وأصبح من فِقْه السُّنَن في واقع الأُمَّة أنْ ندرس هذا الواقع، والتحدِّيات والصعوبات التي تُواجِهه، والفرص والإمكانيات المتاحة له. ومن ذلك الأسبابُ التي أدَّت إلى هذه الصورة من الواقع، وكيفية الخروج منه بما يَلزمه من إجراءات التغيير والإصلاح. ومن فِقْه السُّنَن كذلك امتلاك الوعي اللازم بتفاصيل الأزمة التي تعانيها الأُمَّة؛ والكيفية التي بدأت بها، وزمن بَدْئها، ومراحل تطوُّرها، والحجم الذي وصلت إليه، وأعراضها التي تُعبِّر عنها، واتِّجاهات التحوُّل التي لا تزال تـمرُّ بـها.

## المراجع

البخاري، محمد بن إسماعيل (1998). **صحيح البخاري**، عناية: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية.

برغوث، عبد العزيز (2007). "ملاحظات حول دراسة السُّنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية"، **مجلَّة إسلامية المعرفة**، عدد 49.

البشري، طارق (2011). **نحو تيار أساسي للأُمَّة**، القاهرة: دار الشروق.

البيهقي، أحمد بن الحسين (1994). **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز.

ابن حنبل، أحمد (2001). **مسند أحمد**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة.

ابن خلدون، عبد الرحمن (2004). **مُقدِّمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر، طبعة جديدة ومزيدة ومنقحة.

الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (1420هـ). **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الريسوني، أحمد (2012). **الأُمَّة هي الأصل: مقاربة تأصيلية لقضايا الديمقراطية، حرية التعبير، الفن**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

زيدان، عبد الكريم (1993). **السُّنَن الإلهية في الأُمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الرسالة.

شيري، إريك (2016). **الجدول الدوري**، ترجمة: محمد عبد الرحمن إسماعيل، مراجعة: هاني فتحي سليمان، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

طه عبد الرحمن (2005). **الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري**، الدار البيضاء-وبيروت: المركز الثقافي العربي.

ابن عاشور، محمد الطاهر (1984). **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الشركة التونسية للنشر.

عبده، محمد (2011). **الإسلام بين العلم والمدنية**، القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر.

عبده، محمد، ورضا، محمد رشيد (1947). **تفسير القرآن الحكيم (تفسير الـمنار)**، القاهرة: دار الـمنار.

الفاروقي، إسماعيل راجي (2016). **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة: السيّد محمد السيّد عمر، هيرندن، عمّان: الـمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

أبو الفضل، منى (1996). **الأُمَّة القطب: نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأُمَّة في الإسلام**، القاهرة: الـمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

قطب، محمد (د.ت). **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، ط2، القاهرة: دار الشروق.

قطب، محمد (1991). **رؤية إسلامية لأحوال العالَـم المعاصر**، الرياض: دار الوطن للنشر.

ابن القيِّم الجوزية، محمد بن أبي بكر (1429هـ). **الداء والدواء**، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، جدة-مكة الـمكرمة: مطبوعات مجمع الفِقْه الإسلامي، دار عالم الفوائد.

لوبون، غوستاف (2014). **السُّنَن النفسية لتطوُّر الأُمم**، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

مالك بن أنس، (1412هـ). **الموطأ**، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة.

الـمتقي، علاء الدين علي البرهان (1985). **كنـز العمال في سُنَن الأقوال والأفعال**، عناية: الحياني والسقا، ط5، بيروت: مؤسسة الرسالة.

مُسلِم، أبو الحسين مُسلِم بن الحجاج القشيري (1998). **صحيح مُسلِم**، عناية: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية.

مصطفى، نادية (2015). **العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي: منظور حضاري مقارن**، القاهرة: دار البشير ومركز الحضارة للدراسات السياسية.

الـمعهد العالمي للفكر الإسلامي (1992). **إسلامية الـمعرفة: الـمبادئ العامة - خُطَّة العمل - الإنجازات**، ط2، واشنطن: الـمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ملكاوي، فتحي حسن (2008). "التأصيل الإسلامي لمفهوم القِيَم"، **مجلَّة إسلامية الـمعرفة، عدد54**.

ملكاوي، فتحي حسن (2012). **استنباط القِيَم في حقل معرفي: التربية نموذجاً**، في: القِيَم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير: نادية مصطفى وآخرون، القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم.

ملكاوي، فتحي حسن (2016). **الصراع على مرجعية القِيَم في العالَـم المعاصر**، المؤتمر الرابع لمركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق في جامعة حمد بن خليفة، بعنوان: تزاحم القِيَم في العالَـم المعاصر: إسهامات إسلامية، قطر، 2-3 نيسان.

ملكاوي، فتحي حسن (2020). **القِيَم الـمقاصدية وتجلِّياتها التربوية**، هيرندن، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (1997). **لسان العرب**، بيروت: دار صادر.

الـمودودي، أبو الأعلى (1980). **الأُسس الأخلاقية للحركة الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الرسالة.

## References

ʿAbduh, M. & Riḍā, M. (1947). *Tafsīr al-Qur'ān al-Ḥakīm* (*Tafsīr al-Manār*). Cairo: Dār al-Manār.

ʿAbduh, M. (2011). *Al-Islām bayn al-ʿIlm wa al-Madaniyyah*. Cairo: Kalimāt ʿArabiyyah li al-Tarjamah wa al-Nasht.

Abū al-Faḍl, M. (1996). *Al-Ummah al-Quṭub: Naḥwa Ta'ṣīl Manhājī li Mafhūm Al-Ummah fī al-Islām*. Cairo: Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī.

Al-Bayhaqī, A. (1994). *Al-Sunan al-Kubrā* (M. ʿAṭā, Ed.). Makkah al-Mukarramah: Maktabat Dār al-Bāz.

Al-Bishrī, Ṭ. (2011). *Naḥwa Tayyār Islāmī li al-Ummah*. Cairo: Dār al-Shurūq.

Al-Bukhārī, M. (1998). *Ṣaḥīḥ al-Bukhārī* (A. Al-Karmī, Ed.). Riyadh: Bayt al-Afkār al-Dawliyyah.

Al-Fārūqī, I. (2016). A*l-Tawḥīd wa Maḍāmīnuh fī al-Fikr wa al-Ḥayāt* (A. ʿUmar, Translator). Herndon, Amman: Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī.

Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī (1992). *Islāmiyyat al-Maʿrifah: Al-Mabādiʿ al-ʿĀmmah- Khuṭṭat al-ʿAmal- al-Injāzāt* (2nd ed.). Washington: Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī.

Al-Mawdūdī, A. (1980). *Al-Usus al-Akhlāqiyyah li al-Ḥarakah al-Islāmiyyah*. Beirut: Mu'assasat al-Risālah.

Al-Muttaqī, ʿA. (1985). *Kanz al-ʿUmmāl fī Sunan al-Aqwāl wa al-Afʿāl* (5th ed.) (Al-Ḥayyānī & Al-Saqqā, Ed.). Beirut: Mu'assasat al-Risālah.

Al-Raysūnī, A. (2012). *Al-Ummah Hiya al-Aṣl: Muqārabah Ta'ṣīliyyah li Qaḍāyā al-Dīmuqrāṭiyyah, Ḥuriyyat al-Taʿbīr, al-Fann*. Beirut: Al-Shabakah al-ʿArabiyyah li al-Abḥāth wa al-Nashr.

Al-Rāzī, F. (1420 AH/ 2000 CE). *Mafātīḥ al-Ghayb (Al-Tafsīr al-Kabīr)* (3rd ed.). Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī.

Barghūth, ʿA. (2007). Mulāḥaẓāt Ḥawl Dirāsat al-Sunan al-Ilāhiyyah fī Ḍaw’ al-Muqārabah al-Ḥaḍāriyyah. *Majallat Islāmiyyat al-Maʿrifah*, 49.

Ibn ʿĀshūr, M. (1984). *Tafsīr al-Taḥrīr wa al-Tanwīr*. Tunisia: Al-Sharikah al-Tūnisiyyah li al-Nashr.

Ibn Ḥanbal, A. (2001). *Musnad Aḥmad* (Sh. Al-Arna’ūṭ, et al. Ed.). Beirut: Mu’assasat al-Risālah.

Ibn Khaldūn, ʿA. (2004). *Muqaddimat Ibn Khaldūn* (ʿA. Wāfī, Ed.). Cairo: Dār Nahḍat Miṣr, a new edition.

Ibn Manẓūr, J. (1997). *Lisān al-ʿArab*. Beirut: Dār Ṣādir.

Ibn Qayyim al-Jawziyyah, M. (1429 AH). *Al-Dāʿwa al-Dawā’* (M. Al-Iṣlāḥī, Ed.) (B. Abū Zayd, Rev.). Jedda-Makkah al-Mukarramah: Maṭbūʿāt Majmaʿ al-Fiqh al-Islāmī, Dār ʿĀlam al-Fawā’id.

Le Bon, G. (2014). *Al-Sunan Al-Nafsiyyah li Taṭawwur al-Umam* (ʿA. Zʿayter, Translator). Cairo: Mu’assasat Hindāwī li al-Ta‘līm wa al-Thaqāfah.

Mālik I. (1412 AH/ 1992 CE). *Al-Mawaṭṭa’* (B. Maʿrūf, Ed.). Beirut: Mu’assasat al-Risālah.

Malkāwī, F. (2008). Al-Ta’ṣīl al-Islāmī li Mafhūm al-Qiyam. *Majallat Islāmiyyat al-Maʿrifah*, 54.

Malkāwī, F. (2012). Istinbāṭ al-Qiyam fī Ḥaql Maʿrifī: Al-Tarbiyyah Namūthajan. In N. Muṣṭafā, et al. (Eds.), *Al-Ẓāhirah al-Ijtimāʿiyyah*. Cairo: Dār al-Bashīr li al-Thaqāfah wa al-ʿUlūm.

Malkāwī, F. (2016). Al-Ṣirāʿ ʿalá Marjiʿiyyat al-Qiyam fī al-ʿĀlam al-Muʿāṣir, Al-Mu’tamar al-Rābiʿ li Markiz Dirāsāt al-Tashrīʿ al-Islāmī wa al-Akhlāq fī Jāmiʿat Ḥamad bin Khalīfah. *Tazāḥum al-Qiyam fī al-ʿĀlam al-Muʿāṣir: Ishāmāt Islāmiyyah.* Qatar, March 2-3.

Malkāwī, F. (2020). *Al-Qiyam al-Iqtiṣādiyyah wa Tajalliyātuhā al-Tarbawiyyah.* Herndon, Amman: Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī.

Muslim, A. (1998). *Ṣaḥīḥ Muslim* (A. Al-Karmī, Ed.). Riyadh: Bayt al-Afkār al-Dawliyyah.

Muṣṭafā, N. (2015). *Al-ʿAlāqāt al-Dawliyyah fī al-Tārīkh al-Islāmī: Manẓūr Ḥaḍārī Muqāran*. Cairo: Dār al-Bashīr wa Markiz al-Ḥaḍārah li al-Dirāsāt al-Siyāsiyyah.

Quṭub, M. (1991). *Ru’yah Islāmiyyah li Aḥwāl al-ʿĀlam al-Muʿāṣir*. Riyadh: Dār al-Waṭan li al-Nashr.

Quṭub, M. (n. d.). *Ḥawl al-Tafsīr al-Islāmī li al-Tārīkh* (2nd ed.). Cairo: Dār al-Shurūq.

Shīrī, I. (2016). Al-Jadwal al-Dawrī (M. Ismāʿīl, Translator) (H. Sulaymān, Ed.). Cairo: Mu’assasat Hindāwī li al-Taʿlīm wa la-Thaqāfah.

Ṭāha, ʿA. (2005). *Al-Ḥaq al-Islāmī fī al-Ikhtilāf al-Fikrī.* Casablanca-Beirut: Al-Markiz al-Thaqāfī al-ʿArabī.

Zaydān, ʿA. (1993). *Al-Sunan al-Ilāhiyyah fī al-Umam wa al-Afrād fī al-Sharī‘ah al-Islāmiyyah*. Beirut: Mu’assasat al-Risālah.

# The *Sunan* (Divine Laws) of Nation Building

**Fathi Hasan Malkawi** *

**Abstract**

The concepts of *Sunnah* (pl. *Sunan*; in the broad sense of Divine Laws that govern human beings and nature), value, and nation are central in Qur'anic terminology. Though reflection on these concepts is always necessary, the present situation in the contemporary Muslim world makes it a top priority. This reflection becomes even more urgent when we realize the centrality in the life of nations of the culture of *Sunan* and of *Sunani* thinking, as well as the importance of contemplating on *Sunan* and extracting lessons as indicated in the Holy Qur'an. The founding and survival of a nation depend on several factors that support its existence, or, if lacking, cause its demise. This is Allah's *Sunnah*, His Cosmic Divine Law. This study comprises four topics: a discussion of *Sunnah* as Divine Laws that govern human beings and nature; a discussion of the nation concept; an examination of the Divine Laws (*Sunan*) of nation-building by connecting the Divine Laws with the values and supporting factors, emphasizing the significance of higher values for a nation's wellbeing; and lastly, it deals with the relationship between the Divine Law of Change and higher values, especially those that are essential for the wellbeing of nations.

Keywords: *Sunnah,* Divine Law, value, nation, *Sunani* culture, *Sunani* thinking, the science of *Sunan*, higher values

* Fathi Hasan Malkawi holds a Ph.D. in Education and the Philosophy of Science. He is an educator, university professor, and consultant at the International Institute of Islamic Thought.Email: fathihmalkawi@gmail.com